دكتورة نعمات أحمد فؤاد

الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد



دار المعارف

الجمال والحرية والشخصية الإنسانية

في أدب العقاد

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

الجمال والحرية والشخصية الإنسانية

فى أدب العقاد

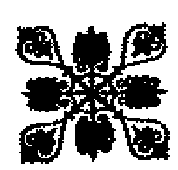


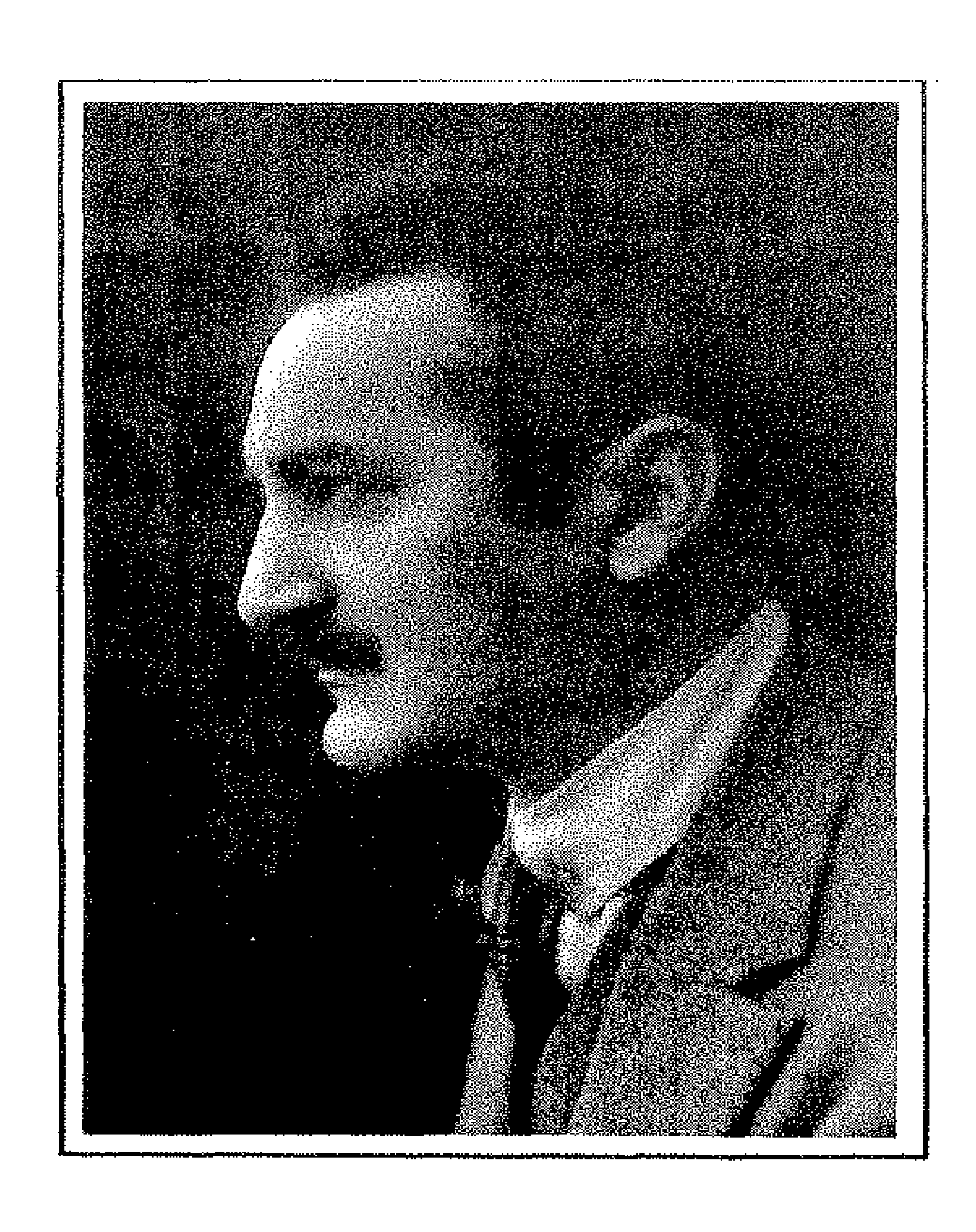
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الباب الأول

الجمال والحرية





العقّاد

وكأنه منذور للمعبد . . . فقد وهب نفسه للكتابة ووهبت نفسها له . . هي صاحبته والولد . . . لا يكاد يخلو إلى نفسه أو إلى الناس إلا وهو على موعد معها يعود إليها فيه،على أنه في خلوة الظاهر،لا يخلو حسه وشعوره منها. فهو مع الناس تعيش معه فكرة في عقله ، أو صورة في عينه ، أو مسئولية في ضميره ، أو خاطراً في خياله ، أو خلجة في شعوره . . لا يذكره الناس وما أكثر ما يذكرونه — إلا مقترناً على لسانهم بكتاب جديد ، أو رأي جديد أو فتح جديد في عالم الكتابة . . عالمه . . يراه الناس وحده ، ويرى نفسه في جمع لا تمل صحبته ولا تذم رفقته ولا ترث صداقته . . صداقة صافية صفاء الخير ، سامية سمو الأدب ، صداقة أدباء يعيشون معه في بيته . . ويعيش معهم في نتاجهم. يطلون عليه أينما يخطو من زجاج المكتبات العديدة المنتشرة في داره حتى لتكاد تحجب جدرانها وتخفي معالم أثاثها. في كل ركن ، في كل زاوية ، في كل ردهة ، في كل حجرة أكداس مركومة من الكتب بعضها سمح الوقت بتنسيقها والبعض ينتظر دوره في القراءة . . ومكانه على الرفوف الخاصة . . يراه الناس حياة عريضة خصبة وأراه حيوات كثيرة. ويعيش المرء أيامه ويعيش هو أجمل أيام العباقرة المحيطين به

فى صمت وزهرة حياتهم . . وكثير وجدته من التفاسير ألواناً . . إنها ظاهرة عجيبة فى دنيا التطاحن والصراع والزحام والتدافع والجلبة والطنين واللغط . . هذا الرجل المتوحد المتشامخ كيف يعيش ؟ . . ويذهبون فى الجواب أشتاتاً . . يراه قوم هادياً كالشعاع . . عالياً كالمنار . . وارفاً كالظل . . زاخراً كالنهر . . عميقاً كالبحر . . حالياً كالروض . . رحباً كالأفق . . خصيباً كالوادى . . مترفعاً كالأسد . . مصعّداً كالنسر . . مهيباً كالعلم . . عنيداً كالجبروت . . لا يرجو ولا يخشى ، إذا تكلم أسمع ، وإن حاجى أقنع ، وإن عادى أفحم ، كثير بنفسه ، سلاحه لا يفل ، وصبره لا يمل ، وجده لا يكل ، وطاقته لا تنضب ، كأن وراءها مدداً يرفدها من سر الخلود أو من روح الله.
ويفرض عليه آخرون برودة الوحدة وكآبة الوحشة وجدب القلب وفراغ البيت حوله من إنسان يعيش له ويرتجيه . إنسان يخرجه من جوه بين الحين والحين . لا بل إن المرء محتاج إلى التفاهة أحياناً تجدد شوقه إلى الجد فيعود إليه أنشط وعليه أقدر ، كما يحتاج محرك السيارة إلى الماء يبرده بعد سير طويل . ويؤيدون رأيهم بالشيوخ من القادرين يتخذون جليبة تقوم على مطالبهم فى مثل مسئولية الزوجة أو قريباً منها . أليس هذا دليل إحساس بالفراغ يحتالون على ملئه ؟ . . وهب هؤلاء يستغنون بهذا الحل عن بلادة فى التفكير أو بلادة فى الإحساس . . عن كثافة لا ينفذون معها إلى القيم العليا فى الزواج من سكن وأمان وراحة وتعاطف ومودة ورحمة ، ولكن الكاتب العبقرى وهو يدرك هذه المعانى كيف احتمل الحرمان ؟ ولا عبرة عند هؤلاء بهموم الأولاد ومشاغلهم ، فقد يدفع الملائكة الصغار الثمن فى لحظة ،يدفعونه

ابتسامة منورة أو كلمة مسكرة ، أو لغواً عذباً أو لهواً منعشاً ، أو دعابة هائلة ، تغسل نفس المكدود فتسترد فى ظلهم الرطيب صفاءها وسلامها .

ويعودون من جولتهم وعلى لسانهم . . هذا السؤال لا يزال : كيف يعيش هذا الكاتب ؟ أيامه كلها قلم وكتاب حتى مجالسه وأسماره مع أدباء أى كتب حية . . حتى ضحكاته على نوادر أدبية . . هل أقفرت الحياة إلا من هذا ؟ إن الأدب جميل معجب ممتع شيء يستطيع أن يملأ القلب والنفس والحس جميعاً . . إنه موسيقى ذات أفكار ولكن على أن يكون هواية . . إن الفن ابن الموهبة والهواية ولكن إذا انقلب حرفة فقد الطلاوة والبهاء .

على أن الامتياز ١٠٠ ٪ كما يقول الرياضيون مخيف . . إنه فى هذه الحالة يضمر القلب ويغدو العقل مسيطراً على نفسه وتغدو الحياة بدورها جافة صعبة . . هل يمكن للجسم أن يكون رأساً فقط ، لا بد من أعضاء صغرى تؤكد إنسانية الحى . . تؤكد وجوده . . لا بد من رجلين تسعيان . . ويدين تصفقان ولسان يتكلم وثغر يضحك وحسب العقل أن يهيمن . . أن يسيطر . . حتى فى هذا لا بد له من التجاوز لحظات أو حتى ساعات لتلوين الحياة .

ومرة أخرى يعودون إلى الكاتب العملاق والسؤال على لسانهم لا يزال : كيف يعيش فى هذه السن العالية ؟ أين الراحة التى يرتاح إليها فى شيخوخة العمر ؟ والحقيقة أنى ضعيفة أمام هذا السؤال . . إنى ممن يحبون الحياة حباً جمًّا وأرى فى كل مرحلة من مراحلها جمالاً خاصًّا لا يفوقه جمال الصبا وربيعه . . يخيل إلىّ أن الرجل أو المرأة أعنى الزوج والزوجة فى الكبر ، يحب كل منهما الآخر أكثر من حبه لأولاده . . إنهما عندئذ عالم خاص . .

عالم من الأسرار . . من الذكريات . . من التجارب . . فسلم الحياة الطويلة لكل درجة فيه عندهما قصة . . وما أحلى العمر عند القمة . إن الشيخين لا غنى لأحدهما عن الآخر . . العلاقة بينهما معنى خالص . . معنى عميق لا دخل للجنس أو الشهوة فيه . . إنهما يجلسان على حافة نبع غير منظور من الذكريات المزدوجة . . من الأحلام المحققة والتي ظلت أماني . . يعيش الفرد عمراً واحداً ويعيش كل منهما عمرين .

مسكين الكاتب العملاق في توحده . . نخلة سامقة وسط الحجر . . **إرتكازه على شخصه فقط حين يرتكز كل واصل على ظروف محيطة . .** ووضعه وضع نادر في الدنيا . . لقد زادت الفردية عنده على حدها . . فهو لا يهنئ ولا يعزى أقصد بشخصه ، ولا عبرة بالرسائل والبرقيات تنوب عنه . . فهو ليس قطب مجالس ، ومن ثم ترى حديثه كعود القصب مستقيماً صلباً وإن لم يحجب صلابته ما فيه من سكر. وكتابته كحديثه صلبة هي الأخرى دقيقة . . خير من تتمثل عنده دقة اللفظ العربي ومطابقته للفكرة . . **الكلمة عنده** (**قفاز**) محبوك ولو أنه أمد له في الإتساع نصف نمرة لأراح بعض الناس،ولكنه يأبى ويصر لأن المسألة تتصل عنده بطاقة القدرة . ولهذا لا يتذوقه إلا متخصص . وقارئه إما أن يفهمه كله أو يتركه كله ، والكاتب في الحالين كأن صومعته قد كتب عليها بيت المتنبي إن جاز أن يقبل صاحبها في شموخه البالغ . . الاستعارة من أحد ولو كان عبقرى الشعر :

أنام ملء جفوني عن شواردهـــــا ويسهر الخلق جراها ويختصم

ولكن لماذا يلوم الناس الكاتب ، لماذا لا يلومون ، أنفسهم ؟ هل من

الضروري أن يكون الكاتب هو المخطئ ؟ ولماذا لا يكون القارئ هو المختلف ولا أقول المتخلف ؟ لماذا لا يصعدون إلى الكاتب . . ويجشمون أنفسهم جهد الصعود بدلاً من أن يقولوا له . . انزل سلينا .

ولكنها كلمة لا يجرءون على كل حال ، مع هذا الكاتب أن ينطقوها فإن قالوها بمعنى أو بآخر فإنما يكون ذلك بعيداً فى الفضاء على طريقة دون كيشوت . والكاتب العملاق إذا تصدر للسؤال والجواب ألفيته موسوعة جامعة تتطوح الأسئلة ولا تعييه ، وتستعصى ولو فى نظر قائليها ولا تعدم عنده الجواب ! كيف اجتمعت له حقائق العلوم مع لطائف الأدب ولا سيا فى عصر التخصص الذى غدا الامتياز فى مادة واحدة كسب يزدهى صاحبه ويعليه ؟ كيف تهيأ له هذا كله ؟ قد يكون هذا هو السؤال الوحيد الذى يزهد فى الإجابة عنه .

على أن وضاءة النبوغ فيه ، ولألاء العبقرية ، وعبقرية العصامية لا تسكت تافهين يتصايحون حوله بالغل والحفيظة ، ومن عجب أمرهم أو أمر بعضهم على الأقل أنهم يقولون مالا يعتقدون إنْ هو إلا ابتغاء للشهرة أو رئاء للخصوم ، فإن حدث أن رقى صياحهم إليه كما يتصاعد الدخان إلى السماء لم يسكتهم واحداً واحداً بل يدعهم يطنون كالذباب ويتهافتون مثله حتى إذا تكاثر جمعهم وألهاهم التكاثر هشهم بعذبة واحدة فيتفرقون بكلمة منه جامعة أو لطمة منه رادعة يدخلون بعدها جحورهم كالنمل . . ومن الطريف قوله فيهم إنهم (وأغش بشرى) يعجزه الصعود ويحنقه الهبوط . .

ميزته وعيبه الفحولة . . . كل إنسان فيه جانب أنثوى وجانب ذكرى ولكن

العقاد جانب الذكورة فيه كان طاغياً . . . والفنان تخدمه صفة الأنوثة . . فالفنان رجلاً أو امرأة ، أم فى احتضان البذرة أى الفكرة وتربيتها . . ثم الخضوع للوحى أو التلقى الذى يقابل فى الطبيعة ، الحمل

التأنيث بالنسبة للإنسان وبصفة خاصة ، الفنان ، هو الاستقبال والتلقى والضيافة والإضافة . .

إن الصين حين تقول (ين) أى المؤنث تقصد المتلقى .

إن النفس البشرية مكونة من الثنائية المتضادة من الأنوثة والذكورة . .

كل صفات الجمال أقرب إلى الأنثى .

كل صفات الجلال أقرب إلى الذكر .

ولعل هذا سر انجذابهما أحدهما إلى الآخر . والإنسان المثالى عند أفلاطون إنسان لا هو ذكر ولا هو أنثى ، ولكن مزيج منهما ثم انشق قسمين ولهذا عندما يجد شق ، الشق الآخر ، فى الحياة ، يسعى إليه ويتكامل به ومعه وهو ما يسمونه الحب من أول نظرة .

الرجل والمرأة والطفل

أى الذكر والأنثى والأمل .

وجنت عليه الفحولة فى معاركه الأدبية والسياسية إذ دفعته إلى العنف وورطته فى خصومات لم يتأخر أصحابها عن التهجم العنيف . . . .

ومرة أخرى ميزته وعيبه ، **الإرادة الحديدية** . كانت هذه الإرادة وراء إنكاره لُستاذاً له(١) ولعل ثورة العقاد على المرأة انعكاس للمعاناة من الفحولة

---

(١) اقرأ كتاب العقاد (حياة قلم) .

والإرادة الحديدية .

ومن فحولته وإرادته أنه يرى الرأى فيغدو عقيدة .

شب العقاد فى عصر افتقد الحريةفعرف الجمال بأنه الحريةمع أن الجمال عِدْل الحرية وصنوها . حتى التناسب وهو أحد مقاييس الجمال سلط العقاد عليه فحولة منطقة فيقول : (. . . قد يتم تناسب الشكل فى وجه قسيم صحيح ثم لا يعجبك ولا تنشط إليه روحك لأنك لا تحس فيه ما يدل على حركة الحياة فى نفس صاحبه وذلك ما يسمونه بثقل الروح . . . وندع الأعضاء والأجسام وننظر إلى الفضائل والأخلاق فلانجد خصلة من الخصائل الجميلة المحمودة إلا وكان فيها معنى من غلبة الحرية على الضرورة)

أكد هذا فى (مطالعاته) و (مراجعاته).

حتى الأشياء طبق عليها نظريته فى الجمال الذى يراه تكاملاً بين الشكل وبين معنى يوحيه أو يضفيه (فالمادة الصماء نفسها تتفاضل فى الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة « الإرادة » فتروقنا النيران والرياح والأمواه ، وتطلق فى نفوسنا خوالج الحياة ، ونعاطيها شيئاً من العطف لا نعاطيه لغير الأحياء ، وليس لهذا فضل ظاهر على عامة الجماد إلا بما تخيله للناظر من حرية الإرادة ومحاكاة الحياة .) .

لقد عاش العقاد شبابه فى ثورة ١٩١٩ التى جعلت كل مصرى بله الفنان يلهج بالحرية ويعتنقها . ومن هنا تأكدت نظرية الحرية وصارت عقيدة ، حتى رفضه (الوظيفة) نابع من عقيدة الحرية .

اتخذ السياسة وسيلة لتحقيق الحرية بمعناها الواسع . حرية البلد

وبالتالى حرية كل شيء فيه . وفى مقدمة مذاقيم الجمال والفن . وقد كان هذا وراء دفاع العقاد عن الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى . . . كان موقفاً بطوليًّا رأى نفسه كرجل فكر وجماليات ملتزماً بالدفاع عن الحرية .

ومع تقديسه للحرية يعبد النظام خاصة فى حياته الفكرية . . . هنا تكون الحرية تنظيم القيود . . . إن لعبة كرة القدم لها قوانين ضابطة وأصول وقواعد . . فأولى الفن أن يكون له نظام مميز وإلا انقلب فوضى .

ومن الحرية ، اهتمامه بالفرد .

ومن الحرية ، حربه الشيوعية لأنها تلغى الفرد . . . واهتمام العقاد بالفرد نابع من ضمير البلد الذى ابتدع فن البورتريه .

حتى شكه الأول نوع من الارتفاع على النمطية وتحرر منها ... ولعل نضجه العقيدى الأخير مرجعه أنه وصل بنفسه لا بالتلقين ...

إن مركز الإيمان ليس الشعور ولكن الخبرة التلقائية الدينية من تنمية الذات تصل إيمان صاحبها مباشرة بالله .

إن من يعكف على نفسه يتحسسها ويتفهمها يؤكد أهليتها للأهمية وهذا كرامة .. وهذه التجربة .. هذه المعاملة مع اللاشعور هى الوسيط الذى تتدفق من خلاله التجربة الدينية ، حين يفتقد الإنسان الانطباعى الخبرة النفسية الناضجة التى تنسجها الدراسة المستأنية والتمحيص .

واستطاع الإسلام بواقعه وروائعه أن يكون رافعة وجدانية نقلت العقاد من القلق إلى مرتقى عال .

إن الوعى الدينى قدرة القلب البشرى على استشفاف المقدس فى الكون

أو فى أعمال الإنسان ...

وغير هذا التدين فإنه ظاهرة . . . عادة قد تكون مجردة من الوعى الدينى وقد تتحول إلى الضد ... إلى نوع من الوثنية التى يمارسها الدين حين تكون التجربة الدينية خبرة مباشرة محققة ذاتية بوجود المقدس أى وعى دينى بلغ الرشد .

ينسبون إليه أنه قال فى مرحلة الشك حين سئل عن الله (هانسيبه يدور علينا هو) ... إذا صح صدور هذه القولة فقد يكون فيها من التسليم بالعجز ، إيمان يعدل ما فى ظاهرها من التمرد . . . .

على كل حال لقد دور عليه وجابه وشغله لحسابه فكتب كتابه (الله) ...

ومن اهتمامه بالفرد واعتداده بنفسه هو ، أنه لم يترجم إلا مجموعة قصص قلما يذكرها أحد .. ثم عدل وإن كان أشرف على سلسلة لفرانكلين .

المترجم عادة فى رأى الناس هو الرجل الثانى وهو معنى لا يطيقه العقاد .

ثم لماذا يترجم آراء الآخرين وعنده جديد دائماً ليعطيه ؟

وكما لم يترجم العقاد ، لم يكتب المسرحية ، لعمق إحساسه بفرديته ....

المسرحية تحتاج إلى معايشة الناس والانغماس فى حياة كل يوم .. وهذه ليست عند العقاد المتكف المتوحد ...

وينسحب هذا الكلام على (القصة) . ولهذا نجد القصة الوحيدة التى كتبها « سارة » قصته هو [1]

(١) كتب العقاد فى أوائل الثلاثينات قصة للسينما تسمى (أنشودة الفؤاد) بل وكتب أغانى الفيلم . . ولكن العملية أو العمل أقرب إلى التكليف منه إلى الانبعاث الشخصى أو الفنى .

المسرحية أشخاص متباينون وعلى المؤلف أن يتقمص كلاً منهم ... ترى هل يستطيع العقاد بعملقته أن يتقمص شخصية إنسان تافه أو مخطئ أو منحرف مثلاً ؟ مثل هذا التقمص ليس عيباً فى كاتب القصة بل قدرة من قدراته ولكن طبيعة العقاد لا هى تستطيعه ، ولا هى ترضاه ...

المسرحية يبدل ويغير فيها الإخراج المسرحي فهل يطيق العقاد هذا ؟

والمسرحية لا تحمل اسم المؤلف وحده ... إنما اسم المخرج والممثلين ... والعقاد فرد متفرد ...

المسرحية توزيع للذات .. والعقاد تجميع للذات و إدلال بها . . ودلال .

وحين أصدرت له دار الهلال قصة حياته ، خرجت فى كتاب اسمه (أنا) .. وسواء لدينا أكان هذا الاسم من عندياتها أم من اختياره هو ، فإنه بلا شك استيحاء نافذ وتعبير صادق عن حقيقة ... إنه يؤكد من خلال هذا العنوان (الفردية) : إنه يقول : أنا الفرد ، لا أنانية ، ولكنه الإيمان بالإنسان ... إنه يقول أنا الكاتب لا المنشئ ... فقد عاش فى عصر العقاد ، الأديب المنفلوطي الذى كان يصوغ بأسلوب شاعرى ما يفكر فيه الآخرون أو يترجمونه له . ولكن العقاد ، أو الأصالة ، هو الذى يفكر ويدعو ويتعاطف أو يثور ... العقاد هو الكاتب لا المنشئ .

أما القصة فقد كان يفضل بيتاً من الشعر عليها ، لأن بيت الشعر يركز له التجربة الإنسانية أو الموقف الإنساني فى ألفاظ قليلة ووقت قصير سريع ... ووراء هذا التفضيل خلفية من طبيعة العقاد وطبيعة القصة معاً ....

أما طبيعة العقاد فهو كرجل موسوعي يريد أن يقرأ ، وهو يفعل ، فى شتى

أنواع المعرفة المتاحة .. وهو كرجل فكر ومسئولية يقرأ للمعرفة لا للتسلية أو حتى للمتعة الفنية ...

وهو كأسلوب شخصية أو شخصية ذات أسلوب كان منهجه فى القراءة أن يقرأ فى المادة العلمية أحسن ما كتب فيها ولأحسن كاتب فى هذا ، بل إن الكاتب المختار يقرأ له خير ما فى كتابه من الفصول الجامعة أو الفصول المركزة المقطرة تقطيراً ... خلاصة الخلاصة .

ولا يفرض العقاد هذه الطريقة على أحد فقد كان فى معرض حديثه عن عبد الرحمن شكرى يقول : (إنه يقرأ أكثر منى) ويستدل على هذا بأن عبد الرحمن شكرى يقرأ حتى للكتاب من الدرجة الثالثة ... وجهات نظر .

رجل كهذا وخاصة بعد أن بلغ نضجه الزمنى والفكرى لا يمكن ولا يتسنى له ، أن يقرأ ما تخرجه المطابع من قصص مئينية أو ألفية ....

ودعنا قليلاً من العقاد هل نحن أنفسنا نطبق هذا ؟ إن القصص الطويلة لا تجد فسحة من وقت إلا عند الشباب .. أما حين يمتد العمر وتغلو الساعات فإنها تكون محسوبة ... والإنسان لا يعطيها إلا باقتناع وقدر ... وليس من هذا ، البذل للقصص الطويلة إلا إذا كانت قمة لها قيمة معينة . . . وقد قرأ العقاد رباعية الإسكندرية للورانس داريل وكتب عنها كتابة من استوعبها .

إذن تفضيل العقاد الشعر على القصة له مبرراته المعقولة ولو من زاويته هو ، فليس كل قارئ أو حتى كاتب عنده هذا (الانضباط الثقافى) الذى كان يعيشه العقاد .

ولا وجه هنا للحديث فى هذا المجال عن الأشكال الهندسية وتشبيه فصل

الشعر على القصة بفضل الدائرة على المربع كما يقول بعض ناقديه .

ويبلغ من اعتزاز العقاد بإنسانيته وشخصيته وموهبته أنه وقف شعره على نفسه والناس فى وقت سار فيه الشعر فى ركاب السياسة والإمارة فدواوينه الأولى أفكار وأعماق وتأملات ... أما دواوينه الأخيرة ففنائية تعبيراً عن الإنسان فيه ، عواطفه وآلامه ...

والشعراء عادة يبدأون بالغنائيات وينتهون بالتأملات ولكنه العقاد الشخص والظروف .

ويراه بعض النقاد فى احتفاله بالفرد ، مرحلة لاحقة ومكملة لمرحلة الأفغاني والشيخ محمد عبده ولطفى السيد الذين كانت رسالتهم دعوة إلى « تعقيل الحياة » وترشيد الوعى ، فكان العقاد بشخصه ودعوته ، علامة لدور جديد يجد فيه الإنسان المصرى نفسه ، ويحترم ذاته وكرامته .

لم يفرغ بعد حديث الحرية ... فقد كانت معنى يلح على العقاد فى نثره وشعره وسلوكه وتصرفه .. كانت الحرية بالنسبة إلى العقاد قولاً وعملاً وكتابة لا شعاراً للزينة .

لقد ورد العقاد والمازنى الأدب الإنجليزى وكثيراً ما كانا يقرآن معاً مرجعاً بعينه أى أن ثقافتهما الغربية واحدة أو متلاقية . وكانا فى الحياة متلازمين على امتداد أربعين عاماً ... وكتب المازنى كثيراً عن الحرية .. ولكنها لم تكن عنده الوتر المتوفز كما كانت عند العقاد .

وصف المازنى – نثراً – العصفور ، وصفاً كأنما هو بدع ريشة مصورة ملونة . ووصف العقاد – شعراً – العصفور فكان خط الحرية هو بيت القصيد ....

عصفور المازنى (يذهب إلى حيث يشاء ويحلق فى الجو ويسبح فى الفضاء . ويبصر وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء . . . عصفور ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر . . عصفور يرفع منقاره وهو طائر ويتلق فى فمه الدقيق قطرة من المطر . . . عصفور يحط على أعلى فنن فى أسمق شجرة ، أو يهوى إلى الأرض ويخطو بين أغصان البرسيم فتحجبه ، ويضع بيضه الصغير فى حيث يروقه أن يؤلف عشه . . ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده ويمص قطرة ويتلفت . . . عصفور لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك إلا جميلاً . . . آه إنه روح الكون ولا شك فى العصافير والسحب سابحة تجوب الآفاق ، وفى الأزاهر والأشجار التى لا تكون إلا عطرة ولا تبدو إلا حالية مونقة ولا يعتورها قلق ، ولا يساورها اضطراب) .

وعصفور العقاد بين الأيك والأيك . . . بين السحب والروض . . بين الماء والشجر طائر مرفرف حتى بين الشباب والشيخوخة لا يسكن له جناح « مرفرفاً قط ما استقر » .

طار وليداً وطار شيخاً بَيْنَ البَســـاتِينِ والغُدُر

وهو سعيد سعيد لا يعنيه بل لا يخطر على باله الجنود والحشود والعروش والتيجان وما ينجم عنها ويعلق بها من مداهنة ومداراة وخوف وحذر وكل ما يكبل الإنسان من قيود تغتال حريته ووجوده :

حَطَّ على الغُصْنِ وانْحدَرْ أَقلَّ منْ لمْحَةِ البَصَرْ
مفـــرداً قطّ ما توَانَي مُرفرفاً قط ما استَقَرّ
كخِفّةِ الطِّفلِ فى صِباه لكنَّها خِفَّةُ العُمُــر

وَرُودُه نَقْبَةٍ فأخـــرى من خوفٌ الطائر الصَّدِر ؟
يُقاربُ السُّحْبَ ثم يَهوى يُبشِّر الروضَ بالمطـــرْ
أصـــدقُ من سار فى سرارِ بين الحَيـــا العذب والشَّجَر
ويَسْتحِثُّ الرياحَ ضرْباً بخافقيْـــهِ فتبتـــدِر
أخبر بالنُّضج مُقلتـــاه مِمَّن سقى الحَبَّ أو بَـــذرْ

سلْه عن الجُنـد والزُّمـــر سله عن المُلك والسُّـرُر
لم يأتِه عنهمُ بـــلاغٌ ولا دليلٌ ولا خَـــبَر
هذا هُوَ العيشُ فاغبطوه عليه يا أيها البشـــر

ومع هذا لا تخلو حياته من المشاكل — وهل خلت حياة العقاد على الرغم من تركه للناس المناصب والمنافع والعروض ؟ فى حياة العصفور الصقر الكاسر ، والنسر الجارح ، والشراك والشباك .

حَبائل الدَّهْر قانصاتٌ من طار أو غاص أو خَطَر
إنها الحياةُ ذُخرٌ لصاحبها وحارسُ الذخرِ فى خطر

وحين تهون على ناس أعمارهم يريقونها على الأرض ، أى على أعتاب الممدوحين ، يرى العقاد أن الطير المفرد هو الشعر كله (لأنه هو الطلاقة والربيع والطرب والعلو والتعبير والموسيقية . فمن لم يأنس به ، لم يأنس بما فى هذه الدنيا من طبيعة شاعره ولم يختلج له ضمير بما فى الحياة من فرح وجيشان وتعبير)

وهكذا وصل العقاد بشعره ونثره بين عالم الطير وعالم الشعراء . إنه من هذه الزاوية يذكرني بشيللى فى قصيدته الجميلة عن (القبرة) .. إننا نرى القبرة

كثيراً ويبدو أنها دخلت فى خبية الروتين ولكن « شيللى » شاعر لم (تترتون) رؤيته ... وكم غشى الروتين ، الرؤية وكم طمس أخرى . ولكن هذا بالطبع غير إشارات أخرى تزاوج بين عصفور العقاد وقبرة شيللى . وليس بين عصفور العقاد وقبرة صاحبه إلا خط خلو بال الطائر من العروش وأصحابها والعروض والزيوف . ولكن العقاد يستقل بوصف حركة العصفور ودنياه كما يستقل ببعد آخر ... وهو آفة (حبائل الدهر) التى تقنص كل شىء مهما ابتعد بنفسه .. تقنص كل (من طار أو غاص أو خطر) ...

العقاد منذ عشرات السنين يرى فى الطير عوالم شتى :

كل إلْفٌ له من الطير إلْفٌ   هكذا تجْمُل الحياةُ وتَصفو
أملٌ يرتقى ، وحب يُنـــاجى   ولسانٌ يشــدو وقلبٌ يَرِف
بكَ خفَّ الجناحُ يا أيهـــا الط   يرُ وما كنت بالجنــاح تخف
لُطفُ روحٍ أعار جنبيْك ريشاً   فمن الرُّوح لا من الريش لطْفُ
ليس يُنميكَ للسَّماء جنــاحٌ   بل غناءٌ عن الضياء يشِــفُّ
إن مضَى الناس يعجبون قديماً   كيف تَعْلو؟ عجبتُ كيف تَسِفُّ

حقًّا إن الطيور فيها من جمال الصياغة وتنوع الشكل ووفرة اللون ، وخفة الحركة فى الأرض ، ورفة الجناح فى السماء ما يجعلها من أجمل ما خلق الله .

إن الريشة فى حسن نظامها ودقته وحسمه ورياضة منحنياته ، وفى تمامه ، وملمسه ، وفى تماسك نسيجه ، مسرح كبير للفكر ...

فيض كبير تستطيع أن تسكبه ريشة من جناح طائر ....

ولأمر ما وضع المصريون القدماء قلب الإنسان فى كفة ، والريشة فى كفة .

إن القلب الذى يعادل الريشة فى هذه المعانى له جنة النعيم ...

لو تأملنا الجناح لأحسسنا أنه موجة بحر فى صورة أخرى من التشكيل ..

كم فى الطيور من سحر أشكال وألوان . إن الطبيعة فى باب الطيور كالمغنى الشرقى الذى يسهر الليل مع الليل (يقسّم) ويقول : يا ليل .

الطبيعة فى باب الطيور تبدع أنماطاً مختلفة .

وفى باب (الحيوان) تخلق أنماطاً متعددة وكذلك فى باب (الحشرات) .

والقرآن الكريم يقول : (وما من دابة فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحَيْه إلا أممٌ أمثالُكم) . (سورة الأنعام : آية ٣٨) .

من معانى الطير عند العقاد ، من واقع عبارته ، (العلو) ..

إن الطير فى طيره رمز للنفس الإنسانية فى تحليقها وشوقها إلى السامى .. إلى العالى .. رمز تطلعها ...

لقد تصور الغزالى فى رسالته (منطق الطير) الطيور ، رموزاً ، للنفوس ... وكان هذا منطلقاً للشاعر الفارسى فريد الدين العطار الذى نظم قصيدته الرائعة منطق الطير ....

والروح أغلى وأعلى ما فى الإنسان ، صورها ابن سينا فى صورة طائر فى أبياته :

هبطتْ إليكَ من المحلِّ الأرفَعِ ورقاء ذاتَ تعــززٍ وترفُّــع

محجوبةٌ عن كل مُقلةِ عــالم وهى التى سفَرَتْ ولم تتبرقَع

وصلت على كره إليك وربما كرهَتْ فراقك وهى ذاتُ تفجع

كما كان السهروردى يرى الروح (عصفوراً) والجسم قفصا .

العقاد إنسان حساس وشاعر فى نظرته رهافة وشمول — ومن الناس من يستخدم عينه جهاز إخطار . إشارة فقط — فهى نافذة إلى عوالم شتى ونافذة على دنى عريضة . إن نسيج الحياة فيه من الطيور والنبات والإنسان . والنظرة المقتصرة أو المبتسرة تورث الاضطراب ...

أن ندرك الطبيعة ككل هو الاتزان بعينه . فالحياة ليست أشتاتاً متفرقة ولكنها وحدة متكاملة . حتى ليقول العقاد للكروان :

أنا لا أراكَ وطالما طرق النُّهى — وحْىٌ : ولم تظْفَرْ به عَيْنــانِ
أنا فى جناحِكَ حيثُ غابَ مع الدُّجَى — وإن استقرَّ على الثَّرى جُثْمانى
أنا فى لسانك حيثُ أطلَقَه الهوى — مرحاً ، وإن غلَبَ السرورُ لسانى
أنا فى ضميرِكَ حيث باح فما أرَى — سِراًّ يغيِّبه ضـــميرُ زمــــانى
أنا منك فى القلب الصَّغيرِ مساجِلٌ — خفَقَ الربيـــعُ بذلك الخَفَقـــانِ
أنا منك فى العيْنِ التى تَهَبُ الكَرَى — وتفيـــضُ بالصحَوات والأشجـــانِ
طِرْ فى الظلام بمهجةٍ لو صافحت — حجَرَ الوِهاد لَهَمَّ بالطـــيرانِ
تُغنيك عن ريشِ الجَناح وعزمِــه — فَرْحاتُ منطلِق الهَوَى نَشْــوانِ

كل هذا الخفق من المشاعر ، والدفق من المعانى يهديه العقاد الكروان .. حين يقول بعض الناس الطير ويقصد (الذبان) . . . ! .

فإذا ارتفع قليلاً كانت الطيور هى العصافير . . . !

بل أهدى العقاد ، الكروان ، ديواناً كاملاً (هدية الكروان) مع أن الشعر المصرى لم يلتفت إلى هذا الطائر المصرى حتى ليعجب العقاد فى مقدمة الديوان :

من العجيب أنك لا تقرأ صدى للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون ، على كثرة ما يُسمع الكروان فى أجوائنا المصرية من شمال وجنوب !

وأعجب منه أنك لا تقرأ فيما ينظمون إلا مناجاة البلابل وأشباهها على قلة ما تُسمع فى هذه الأجواء !

فكأنما العامة أصدق شعوراً من الشعراء ، لأنهم يلقبون المغنى بالكروان ولا يلقبونه بالبلبل ، فيصدرون عن شعور صادق ويتحدثون بما يعرفون .

إن كثيراً من شعر العقاد الذى لا يقرؤه الكبار يجب أن نعلمه الأطفال لنربطهم بروعة الحياة ، أو نعلمه الأم المصرية لتكون سباقة إليه قبل طفلها حين يكبر حتى لا يقول مقالة ذلك الذى قال عن أمه ، يكفيها فخراً أنى لها ابن ، امتداداً لادعائه النبوة .

من أوصاف الأدب العربى للسعيد ، القول : غنت بلابله . . . وهذا القول رمز عندى إلى أن داخل الإنسان فيه عوالم شتى منها الطيور . . . فإذا كان سعيداً تغنى بلابله . . . وإذا كان تعيساً متطيراً تنعق فى داخله البوم والغربان ، وإذا كان ثرثاراً تنق فيه الضفادع . . . وهو بالغناء والنعيق وبأشياء أخرى كثيرة ، إنسان . . .

إن فى حديث العقاد عن الكروان تربية للوجدان . . .

والشعراء عندنا ينمون وجدان الناس على المستوى الأفقى . . . البارودى شاعر عظيم . . . نفض التراب عما عندنا من جيد . . . وهذه بلا شك مرحلة . . .

وشوق عارض الأقدمين وتفوق عليهم أحياناً كثيرة . . . ووفر لشعرنا أصواتاً كثيرة وملأه موسيقية . . . وهذه مرحلة .

عندنا فى العربية رثاء كثير ولكن نادراً ما نجد موقفاً كبيراً أمام الموت .

عندنا غزل كثير ولكن نادراً ما نجد موقفاً كبيراً أمام أجمل العواطف الإنسانية .

عندنا الكروان والعقاب والعصفور وكل ما ألهم العقاد الشعر لا الكلام ، ولكننا مررنا به بلا عطف أو تفضلنا عليه بالوصف ولكن من الظاهر لأننا انشغلنا باللغة لا بآفاق النفس واللغة مطلب يسير . . .

هل يغترف الكوز من البحر وهو كنوز ، أكثر من قطرات ؟ . .

ولكن الغواص إلى الأعماق يظفر باللؤلؤ والمرجان . . .

لماذا قال القرآن الكريم : (وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ . . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) .

(سورة الشعراء : آيات ٢٢٤ — ٢٢٦)

لقد انتفى الصدق . . مثل هذا الشعر صناعة . . لقد أزرى القرآن بمثل هذا الشعر وهو أروع كتاب لا من الناحية الدينية فحسب ، ولكن من الناحية الأدبية الفنية الجمالية . . . ولكنه رأى الشعر الجاهلى الموجود وقت نزوله هواية وغواية يتنزل بالنفس حين يرتفع هو كأدب حقيق راق بالنفس ويسمو بها . . .

وحتى اللغة كثيراً ما أسأنا إلى الألفاظ والمعانى . . فحرفنا معنى الحنبلة إلى الحذلقة والصرامة الصارمة ، مع أن الإمام أحمد بن حنبل من أرق

الأئمة وأوسعهم أفقاً .

ولفظة (البركة) التي تعني الزيادة والخير والنعمة أخرجناها عن مدلولها وأدخلناها في جو السبهللة .

ومثل هذا لفظ (الفن) الذي يعني في التخريج الجديد ، البوهيمية .

فإذا لم نحرف الكلم عن مواضعه ، قلق به من التكرار المسئوم موضعه . فنقول ونعيد حضارة سبعة آلاف سنة حتى باتت العبارة وكأنها اكتفاء وإيحاء بالجهد الجهيد وبالتالي النوم والراحة . . . مع أن سبعة آلاف سنة معناها عبء ومسئولية وكنز يستوجب السهر للحفاظ عليه .

* * *

والعقاد الشاعر والكاتب والمفكر يقدس مع الحرية الفن والفنان :

والشِّعْرُ من نَفَسِ الرحمنِ مقتبَسٌ والشاعرُ الفذُّ بين الناسِ رحمنُ

والفن عند العقاد أعلى وأغلى من الأغراض والمنافع . . إنه الحياة مصفّاة من الرتابة والآلية وغبار الاحتكاك اليومي . . . الفن عنده كشف لا وصف من الظاهر الخارجي . . .

(الأمة بغير علم ، أمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور . . . والأمة بغير صناعة أمة تعوزها أداة العمل ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير . . . والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرفة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التي خلت من الفنون لأن الفنون تعبير الأمم عن الحياة) .

وليس بفن عند العقاد الخطوط الصماء أو التصوير المحسوس . . .

ليس بفن عند العقاد ما لا يحمل رؤى ممتدة تصل قلوبنا بقلب الفنان . فالظمآن لا يجديه شيئاً وصف الماء ولكن يرويه الشرب . . المذاق . . الذوق بكل ألوانه شيء ليس فى الكتب . . إنه كما يقول العقاد استمداد خاص وبذل خاص .

ليس المخطوط الصماء ولكن أناقة المبنى ولطف المعنى ونصاعة الشكل . . حشد من الدخر والبشر .

الدخر حين تنبثق الراحة من فرط الدقة ، وتكسو البساطة غزارة التركيب كالزهر يبهر بالألوان ، ولكنه بعد اللون عالم فسيح للفن . . وللعلم . . وللحياة . . أما البشر فسر من أسرار الشخصية المصرية . . إنه يغطى بحراً من الهموم . .

ولأمر ما يقترن فى ذهنى وشعورى ، الفن ، بالآية : (يرزق من يشاء بغير حساب) فعطاء الفنان ، وقد يكون فى عمل واحد ، قدره وتقديره بغير حدود . . . وإلا فأى حساب يقابل الموهبة نفسها ؟

يقول العقاد فى غنائه للكروان إذ يرفرف فى الهزيع الثانى :

يحدُو الكواكب وهو أخفى موضِعاً — من نابغٍ فى غَمرةِ النِّسيانِ
ما ضَرَّ من غَنَّى بمثلِ غنائه — أن ليس يَبْطِشُ بِطشةَ العِقبانِ

إن الجمال والفن قيمة كبرى عند العقاد . . . دونهما بكثير القوة والسطوة . . . ولغة الموسيقى أغنى عنده من لغة الحروف :

أغنَى الكلامَ عن المقَاطِع واللُّغَى — بَثُّ الحزين وفرحةُ الجذلانِ

وهو يقرن بين المعرفة والموسيقى :

مُعلمـةَ الإنسـانِ ما ليس يعلَمُ   وقائلةً ما لا يَبـوح بِهِ الفَـمُ
أعيدِى علىَّ القولَ أنصت وأستمع   حديثـاً له فى نَوْطةِ القلبِ ميسَمُ
حـديثـاً يناغِينى وأذكـرُ أننى   تَسمَّعتُه والقَلْب وسْنان بحلُـم
وأوغِـل بالذكـرَى فأزعُم أنـه   قَديمٌ كعهْد القلبِ أو هو أقـدَم
أعيدِى علىَّ الصوتَ أنظر لعلنى   أرى فى ثَنايا اللَّحـنِ ما يُتوسَّم
ويا رُبَّ وجهٍ يطرق السمَع حسْنُه   إذا غنَّتِ الأوتـارُ أو يَتنسَّمُ

والجمال والفن جوهرهما عند العقاد ، **الصدق** . . . إن مقياس العمل الفنى ليس العرق كالأعمال اليدوية وحتى هذه ليس العرق وحده مقياسها فقد يعرق المرء لأنه يعمل خطأ . . ولكن المقياس أن يكون العمل إنسانيًّا أى مترعاً ببشرية العامل وحبه له ، وأن يكون الفن صادقاً وأميناً منبثقاً فى لحظة خلوص . . . والخلوص نقطة لا ترى . . . نقطة تلاقى الكيان الإنسانى بمذخوره ، مجمعاً ، فى سن القلم أو الريشة عند ملامستها للصفحة أو اللوحة .

هنا يكون الفن عطاء قلب . . وفيوض روح . .

والفنان الصادق عند العقاد رؤية جديدة للحقيقة . . . كشف لها فى داخل نفسه وخارجها . . . فهو يتفتح بالبصيرة النافذة ، للحقيقة حوله وفى أعماق نفسه . حتى الصورة الفوتوغرافية محكومة برؤية المصور نفسه .

ورؤية العقاد لكثير من أعمال الفنون التشكيلية وكتابته عنها ونقده التطبيقى لها ، رؤية بصيرية ، وكتابه (**ساعات بين الكتب**) هو فى

الحقيقة أيام بين المعارض والمتاحف أيضاً ، كما أن بيته ليس مكتبة أدبية ضخمة فحسب ، ولكنه بيت يضم مع المكتبة مجموعة موسيقية عظيمة ومجموعة لوحات تتقدمها لوحة (أنس الوجود) للفنان هدايت، ولوحات من فن فنانينا شعبان زكى ولبيب تادرس ومحمد حسن حتى ليقول الفنان الأستاذ بدر الدين أبو غازى :

(ليس من جيل العقاد مفكر أو أديب مثله عكست كتاباته اهتماماته بالفنون وأفصحت منذ البدء عن وجهة نظر بل عن يقين فى ضرورة الفن للمجتمع ، وعن مدلول الفن الجميل فى نظره ، ومصاحبة العقاد فى كتاباته تطلعنا على منهج متماسك فى النظر إلى الأعمال الفنية . ويصدر عن خلفية فلسفية لمعنى الجمال عنده ، ويقدم أمثلة تطبيقية تشير إلى ذوقه ومطالبه من العمل الفنى ، ويحدد مدارس وأعمالاً يؤثرها بحبه) .

لقد نقد العقاد ١٩٢١ النموذج الأول لتمثال نهضة مصر وأخذ على الفنان محمود مختار ما فى أبي الهول فى النموذج من ملامح بطلمية . .

وقد وقع هذا النقد من الفنان المثال مختار موقع الأهمية العلمية لصحته ودقته فأخذ به وأخرج أبا الهول ، على هدى رأى العقاد ، فى صورة مصرية فرعونية .

والعقاد الفنان داخله مملوء النفس بمجالى الطبيعة ونداءاتها فهو :

كلما أشرَقَ فى الليلِ القَمرْ
وسها الناسُ ولاذُوا بالحُجَرْ
خِلتَ أرواحاً تداعَتْ للسَّمرْ
زُمَراً تهمِس من حول زُمَــرْ

أن هذا الحُسْنَ لا يعفِى هَدَرْ
حينما أسْـفَـر نورٌ وانتشـــــرْ

(ديوان وحى الأربعين)

فى النور يحلو فى عينه . . عين الفنان كل شىء :

فى الليلةِ القَمْراء ما أحْلَى النَّظَــر لكل شَىْءٍ لاحَ فى ضوء القمــر
حتى الثَّرى ، حتى الحَصى ، حتى الحجر

فإذا تنفس الصبح تهلل العقاد وهلل للنور . . للحياة :

صَفْحةُ الجوِّ على السزَّر قاء كالخَـــدِّ الصَّقيلِ
لمعـــةُ الشَّمسِ كعيْنٍ لمَحَتْ نحـــوَ خليـــلِ
رجفَـــةُ الزهْرِ كجسْمٍ هـزَّه الشـوْقُ الدَّخيــلِ
حيث يَمَّمتَ مـــروج وعلى البعـــدِ نخيــلِ
قل ولا تَحفِـــل بشىء إنمـــا العَيْشُ جَميـــلِ

(إنما العيش جميل) وهو الذى لاقى فيه أهوالاً . ولكنه الفنان فيه الذى يحس (رجفة) الزهر و (هزة الشوق الدخيل) . إنه الفنان فيه الذى يسعده أبسط الأشياء فى أعين الناس وإن كانت أكبرها فى عينه هــو . . . .

حتى سهولة الكلمات فى هذه الأبيات تنم على نفس راضية منبسطة متطلقة ، فى ذلك الوقت على الأقل ، هذه البساطة تكاد تجعل الأبيات على غزارة مشاعرها عفوية . . . بريئة، طفلة . . .

إنه العقاد الذى يرق هذه الرقة كلها فى الشعر وهو نفسه العقاد



الذى اشتغل بالسياسة على أنها قضية حرية . وفى سبيل هذه الحرية والوطنية فجر قنبلتين فى البرلمان فى ٢٣ يونية عام ١٩٣٠ مهدداً الملك فؤاد بتحطيم الرأس الذى يعتدى على الدستور ؛ فإذا بالوفد حزب العقاد تأخذه المفاجأة المدوية كالقصر سواء بسواء بل كان العقاد أحياناً يتعمد تصعيد الهجوم حتى لا يترك للوفد وهو حزبه طريقاً للمهادنة أو المساومة .

وكانت صيحة العقاد علامة كبيرة نبذت الأحزاب خلافاتها على أثرها لتلتقى على طريق الدستور تعيده إلى البلاد .

وسرت اليقظة فى الحياة المصرية فظهر الفدائيون وسمع للمتفجرات دوى كأنه تجديد لدوى الكلمة المجلجلة . . .

وسارت المظاهرات .

وأسرّها القصر للعقاد . . . بل إن المعتدلين من نواب حزب الوفد استنكروا جرأته ! حتى رئيس الوفد لم يكن راضياً !

رئيس آخر كان راضياً وملبياً ذلك هو الشعب .

كان العقاد على بسطة الجسم وفراهة الطول ، ضعيف البنية ، ضعيف الصدر خاصة ، يتوقى البرد والحر ويتحرى ما يأكل وما يدع . . . ومع هذا استقبل الحكم عليه بالسجن ثابتاً من وثوق ، واثقاً من إيمان بالله والرأى والوطن .

ودخل السجن وهو يعرف ما ينتظره فيه من تهديد لحياته ، مرفوع الرأس . وخرج منه مرفوع الرأس رفيع التصميم . . .

لم تهدأ له ثورة داخل القضبان . . وحين انتهت المدة خرج من

السجن ليقول بيتيه العتيدين :

وكنت جَنينَ السِّجن تسعةَ أشهرٍ ... وهأنذا فى ساحة الخُلْد أُولـــد
عِداتِى وصحْبِى لا اختلافَ عليهمُو ... سيعْهدُنى كلٌّ كما كان يَعهَـــد

لجأ القصر إلى المصانعة فعرض عليه أن يكون مدير الإدارة العربية فرفض .

عرض عليه العارضون منصب مدير دار الكتب فرفض .

ويرتقى العرض فيما بعد إلى منصب مدير الجامعة فرفض !

وفى وزارة الائتلاف الدستورى تعرض عليه الوزارة فيرفض .

لم يستهوه منصب أو جاه أو منفعة فقد أسقط هذا كله من حسابه مع كثرة ما عرض عليه منه . . . إنه لا يريد لأحد عنده من نعمة تُجزى حتى الوفد ثار عليه حين أنكر منه ما لا يرضيه . . . لهذا لم يدع استبداداً فى أى صورة من الصور إلا حمل عليه مستجيباً لنداء الكرامة والفكر معاً . . .

إنها رسالة الكاتب عرف الأمانة فيها ، وشرف الكلمة والرأى والضمير . . (عباس محمود العقاد) .

لو أن العقاد بتركيبته هذه ، جاء بعد القرن العشرين أى بعد أن فرغنا من عملية نفض الركام – فى الأدب والسياسة على السواء – وإرساء قواعد النهضة والتطلع إلى الغرب ثم اللحاق به وما يجرى هذا المجرى فى الميادين الأخرى من مصاولات أدبية وتيارات فكرية . . إلخ لو جاء العقاد بعد مرحلته التاريخية التى شدته إليها وغمسته فيها بحكم منطقها . . . لو عاش متخففاً من هذا كله لأعطى العقاد عطاءه كاملاً بلا تشتيت أو تفتيت فى النفس والجهد . . . فعند العقاد من الأصالة

والفحولة الفكرية ما يعطى معه على الصعيد العالمى .

ولكن لعل هذه المرحلة التاريخية من حياة وطنه هى التى أصّلت دوره فى حياتنا الفكرية بما أصَّله من معان ومضامين وإرساء قواعد وأفكار .

إن الدكتور (طه حسين) أستاذ أدب .

أستاذ جامعة ورجل دولة .

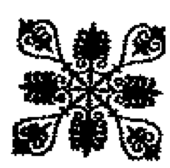
أستاذ يشرح ويفصل ويطوف ويربط وينقد ويعرض . . . ويستوزر ويحكم ويتمتع بهالات وشيات .

الدكتور طه حسين بهذا كله أستاذ أدب ورجل دولة .

ولكن العقاد رجل فكر وراهب صومعة .

الباب الثاني

الشخصية الإنسانية



الفصل الأول

عبقريات العقاد

الكتابة عن العبقرية والبطولة أو العباقرة والأبطال **خط واضح مميز في أدب العقاد** . وهذا الخط له أهمية خاصة عند الدارسين ،فهو عنوان تندرج تحته عناوين كبيرة من حيث الموضوع والدلالة . فالشخصيات الإنسانية التى كتب عنها العقاد منها ما هو أدخل فى فن التراجم ومنها ما هو مزيج فنى بين الترجمة والدراسة الأدبية . وهى فى الحالين وعلى أى الصورتين مفتاح من مفاتيح نفسه هو ، وشخصيته هو ، بل لعلها أهمها جميعاً وأقربها إلى دخول عالمه . . . الأدبي والإنسانى .

وليست الشخصيات التى كتب عنها العقاد كلها من طراز واحد هو طراز العبقرية والتفرد المميز أو الامتياز الفرد ، فقد كتب العقاد عن عمر ابن الخطاب ، وعن عمر بن أبى ربيعة ، بل ظهر كتاباه عنهما فى وقت واحد . ابن الخطاب بما فى شخصيته الرائعة من مذخورات للكتابة وموضوعات للقلم ، وابن أبى ربيعة . . يحسن بي أن أترك الميدان لفارسه ، يقول الأستاذ العقاد : (ابن أبى ربيعة ولا ريب ظاهرة أدبية ، وظاهرة نفسية قليلة النظير فى الآداب العربية ، وحقه فى الدراسة كحق جميع الشعراء المعروفين بهبة الفن وصدق التعبير . . وإنه لنى الطليعة الملحوظة من هؤلاء)(١)

---

(١) ص ٧ شاعر الغزل .

أما كون ابن أبي ربيعة شعره كله غزل وديوانه كله رسائل غرام فلا يثير دهشة عند العقاد : (لأنه كان يعبر عن حاجة من حاجات عصره تتسع للدواوين)[١].

فابن أبي ربيعة يستحق الكتابة بما يمثل من حقيقة عصره : (وإن لم يكن أفضل شعرائه نظماً ولا أبرعهم قصيداً ولا أقدرهم صناعة ، على إجادته الموفقة في أبيات ومقطوعات)[٢].

كما كان في شعره يمثل حياته هو أصدق تمثيل (وإن أصدق الشعراء فنا وحياة لمن تعرفه بديوانه وتعرفه لديوانه)

وكتب الأستاذ العقاد عن النواسي بما هو (شخصية) يعرفها المتأدبون والقارئون والأميون على سواء بينهم وإن تفاوتوا بعد هذا في ناحيته الفنية .

(شخصية تحجب حقيقتها – على الشهرة والذيوع – أغطية كثيرة جعلت دراستها النفسية ودراستها التاريخية موضوعاً يستحق الكتابة بما يبرز من هذه الحقيقة من وراء تلك الأغطية المضللة . وحسب الكتابة أن تمحص حقًّا وتدحض باطلاً وإن كان (موضوع) الحقيقة شخصية مأمونة كأبي نواس الذي لا يشفع له إلا عزو آفته إلى الضعف والشعور المغلوب لا إلى الشر والأذى)[٣]

ولئن كان حبه مشوباً بشهواته لقد كان لمحاسن الدنيا حب مطبوع

---

(١) ص ٢٩ شاعر الغزل .

(٢) ص ٦٢ « «

(٣) ص ٧ « «

فى وجدانه وذوقه ، وكان له فى تلك المحاسن كما يقول العقاد وصف يكسو الحياة زينة ويصقل ما اخشوشن من شدائدها وأكدارها على نفوس الأحياء.

ويتساءل العقاد فى عطف ظاهر على الضعف الإنسانى :

(هل زادت عيوب أبى نواس مقدار الرذيلة فى الدنيا ؟ إن المقدار ليختلف هنا مع المقدارين ، ولكنهم لا يختلفون فيما زاده من ثروة النفس والبيان) (١).

* * *

دراسة العقاد لطرز مختلفة من الشخصيات فيه لون من المقابلة يعمد إليها لأنها فى نظره وتقديره (أنفع الدراسات النفسية فهى دراسة نافعة لفهم حقيقة الإنسان وفهم حقيقة الجماعات ، ونافعة لكل من يعنيه أن يحسن تقدير الأعمال الكبرى والدعوات الشاملة . . ونافعة لمتعة العقل وتوسيع آفاقه) (٢).

لقد تناول العقاد أنماطاً مختلفة من الشخصية وترجم لهذه الأنماط **كلها بل ترجم العقاد للشيطان** . ويبدو أن الشيطان أعدته مثاليات العقاد فكفر بالشر ، وظفر بالعفو وإن كان هذا لم يدم طويلاً إذ غلب الطبع التطبع ، فاستكبر وعصى فاستحال حجراً ولكنه الحجر الذى يفتن العقول والألباب من خلال الصور والتماثيل الذى يتشكل فيها .

ليس الشعر وحده من وادى عبقر ولكن الفن التشكيلى أيضاً . .

---

(١) ص ١٩٧ أبو نواس الحسن بن هانى .

(٢) ص ١٨٣ « « « « «

وقصيدة (ترجمة شيطان) فجرت فى الأدب العربى آراء ومواقف لعل أبرزها وأظرفها موقف الدكتور طه حسين فقد قال عنها : (. . . قصيدة لن ينقضى إعجابى بها . وقد أقرؤها عشرين مرة أو ثلاثين . . . والسبب فى ذلك أنى أجد فيها كلمات قرأتها معنى جديداً ، أو معانى جديدة . ثم هذه الطرافة المدهشة . وتستطيعون أن تبحثوا عن مثلها فى الشعر القديم فلن تجدوا لها شبيهاً) ومن أجلها قال : (ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه) .

وتهامس الخبثاء إنه يخلع عليه إمارة الشعر لتخلو له إمارة النثر .

وما كان العقاد أو طه حسين فى حاجة إلى التقسيم أو المقايضة الأدبية فإن تصدرهما لدولة الأدب يغنى فيه الواقع عن التنصيب والتلقيب .

ومن الطريف أن الدكتور طه حسين على إثر محاولات نقدية بينهما ، أنكر أنه بايع العقاد بإمارة الشعراء ! فى مقال له بجريدة الجمهورية .

* * *

ما هو الخط الرابط بين النماذج المختلفة التى قدمها لنا العقاد ؟ لقد تناول ألواناً مختلفة من الموضوعات بينها من التباين ما بين فلسفة هيوم ومجون أبى نواس .

والعقاد لم يلتزم منهجاً واحداً فى كتاباته اللهم إلا إذا استثنينا عبقرياته الإسلامية فهى تكاد تكون ذات طابع واحد .

ما هذه الأنماط . . ما هى ؟

ما هذه المناهج ؟

ما هذه الموضوعات ؟

ثم ما هي القيم الفنية والإنسانية التي تعطيها ؟

ما هي الدلالات الكامنة فيها ؟

أسئلة يحاول هذا الكتاب أن يجيب عنها . . وأن يوفيها . .

تكلم العقاد **عن سمو الإنسان** في محمد الرسول ، والمسيح ، وأبى بكر الصديق ، وغاندى ، والشيخ محمد عبده وعن عبقريته في عمر ،**وعن شاعريته** في عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة ، وعن إبداعه في شكسبير وبرناردشو وجيته ، **وعن طاقاته الخالقة والفائقة** في ابن سينا وابن رشد ، وعن **علمه** في فرانسيس بيكون . **وعن ملكات القيادة فيه** . . في سعد زغلول ومحمد على جناح ، وبنيامين فرانكلين .

كل في مجاله، شخصية . . **والشخصية في فكر العقاد وأدبه قمة الوجود الإنساني** . . تكامل الكيان البشري نحو قيمة جديدة . . . **وينطبق هذا عنده على الأمم كالأفراد** . . . فالشخصية بالنسبة إلى الأمم خلق حضارى كالذى فعلته مصر والهند والصين في العالم القديم .

طريق طويل أو عوالم شتى . . يضل فيها بلا مراء من لا يعرف كلمة السر . . أو سر الكلمة . . الكلمة التي قالها العقاد في كل واحد من هؤلاء .

هذا السر **هو تقديسه للفرد وتقديسه للذاتية** ، ذلك التقديس الذى يقف وراء الكثير من آرائه وكتاباته ، ولعله مفتاح أشياء كثيرة عنده . . **فتمجيده للديمقراطية** التي تكفل حرية الفرد وأهم ما فيها عنده : (أن

يشعر كل فرد ، وكل فريق بأنه صاحب رأى فى حكومة بلاده وبغير ذلك لا تتحقق لها مزية) فالديمقراطية بلغته الحاسمة الحتمية : (إما أن تكون ثقة شعبية أو لا تكون شيئاً) وحيثيات هذا الحكم العقادى يفصله تفصيلاً كتابه : (الحكم المطلق فى القرن العشرين) .

وحربه الشيوعية إذ يستحق كما يقول فى كتابه (أفيون الشعب) أن يسمى مذهباً هداماً كل مذهب يقضى على جهود الإنسانية فى تاريخها القديم والحديث ، ولا سيما الجهود التى بذلها الإنسان للارتفاع بنفسه من الإباحية الحيوانية إلى مرتبة المخلوق الذى يعرف حرية الفكر وحرية الضمير .

ثم ثورته على الشعر العربى التقليدى ومعظمه مدح بل إغراق فى المديح والتبعية يمسخ شخصية الشاعر ويذيبها فى شخص ممدوحه ويهدر القيم الفنية فى أثناء هذا لأن الفن عند هؤلاء وسيلة لا غاية . .

وتقديره (العبقريات) أى التفرد أى الامتياز الخاص ومقاييسه الفنية . . بل إن الإسلام نفسه لم يأت تفضيله له إلا باعتباره العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده ، وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ، ومسالماً أو محارباً ، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته . . أى أن شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية مما فصله فى كتابه (الإسلام فى القرن العشرين) ، هو المزية الخاصة فى العقيدة الإسلامية ، وهو المزية التى توحى إلى الإنسان أنه (كل) شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين

ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق .

والقرآن كتاب الإسلام من مزاياه الواضحة الجديدة بالاعتبار مزية (**التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعية والتكليف**) . والتفكير فريضة إسلامية أى الذاتية أى احترام الإنسان .

وحين يكون العمل بالعقل أمراً من أوامر الخالق يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله ، أو خوفاً منه ، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال) .

كل هذه الخطوط الكبيرة فى شخصية العملاق الذى سافر إلى أسوان ، تنبع من حقيقة كبرى تملأ عليه نفسه وهى **تقديس الإنسان** . . وتقديسه للذاتية هو الذى جعله يرفض تعريف ابن خلكان لشاعره الأثير ابن الرومى ، مع ما فى ظاهر هذا التعريف من مدح بالغ فى رأى كل عين إلا عين العقاد . أما النظم العجيب والتولد الغريب والغوص على المعانى النادرة واستخراجها من مكامنها وإبرازها فى أحسن صورة ، واستيفاء المعنى حتى لا يبقى فيه بقية . كل هذا مما يبهر القارىء ، يراه العقاد ناقصاً بل الناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه كما يقول . فالغوص على المعانى . . إلخ لهو لعب فارغ كلعب الحواة المشعوذين إن لم يكن صاحبه صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير ، إذ **المزية الكبرى للشاعر إنما هى الطبيعة الفنية** (هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته أياً كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ، ومن الثروة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر

وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنة لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولا يخفى فيها ذكر خلجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان) .

والشعر الجيد يساوى عنده الطبيعة الفنية (أما المعانى والتوليدات فهى وسائل إلى غاية لا قيمة لها فيما تؤديه وتنتهى إليه ، ويستوى بعد ذلك من أدى إليك سريرة نفسه بتوليد وإغراب ومن أداها إليك بكلام لا إغراب فيه ولا توليد) .

فالشعر من الشاعر هو إهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه ، وليس لباساً للزينة فى مواسم الأيام ولا لباساً يلبسه للابتذال فى عامة الأيام .

* * *

حتى الصحافة لم تستطع أن تجنى عليه جنايتها على الأدباء ، فظل أسلوبه له طابعه الذى لا يتغير ، طابع الدراسة والاستقصاء والتمحيص ، وهذا صدى لفرديته واعتزازه بذاته حتى لتغلب شخصيته فلا تطغى عليها شخصية أخرى فردية أو معنوية . . إن الصحافة تغلب بالكثرة وهو معتكف متعال متفرد .

ومما يتصل بصفة (الذاتية) عند العقاد ، إيمانه بالإنسان . فالعقاد الكاتب السياسى الذى هز الوزارات والعروش كان لا يرى رأى من يبررون القتل السياسى . وكان يأخذ على الشيخ جمال الدين الأفغانى أنه أوعز

بقتل الشاه . روى لى مرة أنه شاهد فيلماً يقضم فيه (Attila) زور عدوه فتقزز من المنظر حتى لم ينم ليلته ، فلما وقعت حادثة دنشواى هزته هزاً عنيفاً تضاءلت معه بشاعة هذا الحادث حتى خيل إليه أن إنجلترا لو تجسمت له لقضم زورها كما فعل (Attila) تماماً . لقد كان وقت الحادث فى أسوان حين طلعت عليهم اللواء بهذا العنوان (يا دافع البلاء) والتفوا حول الجريدة أربعة يقرءون فأغمى على أحدهم وانخرط الباقون فى البكاء . لقد سمعته يقول إن دنشواى أصابته بصدمة لم تتكرر فى حياته . ومع أنها حادثة فردية وهنالك من الحوادث القومية ما هو أضخم منها ولكنها ، من الناحية الإنسانية ، كانت تثيره وتفزعه وكان يتناولها بمنطقه المعهود وعقله الثاقب فيرى أن الاعتزاز بالقوة إلى حد الاستباحة . . استباحة كل شىء يجرح كرامة الإنسان . وكان العقاد مؤمناً بالإنسان إيماناً يبلغ حد التطرف والمغالاة من حفاظ على الكرامة والشخصية جعله يغضب من التلويح البعيد غضبة إنسان آخر مما يجرح أو يسوء .

كان العقاد يتمنى على لودفج فى كتابه عن نابليون ألا يستطرد فى أسلوبه بتلك السهولة وذلك الانسجام ، وأن يعمد إلى التركيز من حين إلى حين (ليستوقف السياق المألوف ويطلع قراءه على مواضع الغرابة والتقديس فى البطل الممتاز كما أطلعهم على شئونه التى تجرى فى الحياة مجرى العادة والعرف المشاع)[1] .

وحجته فى هذا أن (العرف المألوف لا يستفز القدوة ولا ينصف

---

(١) ساعات بين الكتب جـ ٢ ص ١٤٥ .

المظلمة ولا يبعث الشوق إلى المعرفة ، فإبراز جوانب الغرابة والتنويه بها هو الأساس فى تراجم الأفذاذ الذين ما كانوا أفذاذاً إلا لأنهم غرباء يختلفون عن سواد الناس) (١) .

الذاتية والشخصية الإنسانية هي محور تقديره وتفكيره . من أصالة ذاته هو وقوة شخصيته هو .

والعقاد أحب صفاته إليه : الشاعر . ولكل شاعر شيطان يسكن وادى عبقر – هكذا يقول العرب – وقد ترجم العقاد للشيطان . وحتى هذا يرى الأستاذ عبد الرحمن صدقى أن (الشيطان الذى أحياه العقاد ، وأماته ، وصور لنا حياته هذا التصوير البديع ، **إنما هو شيطان العقاد وشعره** . . . وهذه النفس الطامحة التى لا حد لآمالها . . هذه النفس التى لا يرضيها شىء ولا تستريح ولا تطمئن إلى شىء ولا ترضى إلا لتسخط ولا تستقر إلا لتتحرك حركة لا حد لها ، حتى إذا خرجت من الحياة وانتهى عهدها بالوجود ، فإن آثارها لا تزال قائمة تعمل فى النفوس وتغريها وتبعث فيها الحركة ، وإن كان الشيطان قد استحال إلى رماد فى القبر ، هذا الشيطان هو سحر صاحب الفن . والذى نلحظه فى كل أثر من آثار العقاد أو الشعراء النابهين أمثال العقاد) .

لقد كتب العقاد عن « الذاتية الإنسانية » فى مجال تفردها بما فيه

---

(١) ساعات بين الكتب ج ٢ ص ١٤٦ .

هو من التفرد والامتياز وكانه يرى نفسه من خلالها أو يرى نفسه من خلال .

* * *

وهو بكتابته عن شخصية من الشخصيات فذلك علامة تهدير لأنها علامة طريق .

فابن رشد موضوع للكتابة بمكانته فى تاريخ الفكر الإنسانى إذ هو شارح المعلم الأول أرسطو وأكبر الفلاسفة الشراح أثراً فى الغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين .

وهو موضوع للكتابة بمشاركاته فى الفكر والفلسفة والطب والفقه وما يتخللها من معارف ، موزعة كالعلم الطبيعى وما إليه فى زمانه .

وهو موضوع للكتابة بما رزقه من أنصار ومعجبين من أصحاب الأديان الثلاثة ممن لم يرزق مثله فيلسوف قبله ولا بعده . وهو هو الذى كان له مصادرون ومضطهدون من أتباع كل دين ، وخدام كل سلطان . ولو أن المصادرين عملوا قصداً وعمداً على نشر آرائه وشروحه لفاتهم بعض النجاح وأخطأهم بعض التدبير كما يقول العقاد .

وابن رشد موضوع للكتابة بما رزق من بعد الأثر واتساع مداه ، وبما رزقه من قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه . وبين هذين فروق يفصلها العقاد (فربما كان بعد الأثر واتساع مداه مسألة مسافات وأبعاد ، ولكن قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه شىء آخر يقاس بدوافع الحياة والحركة النفسية ولا يقاس بالسنين والأمكنة . هو شىء فى آفاق النفوس والعقول ، وليس فى آفاق الفضاء أو صفحات

الأوراق ، وقد رزق ابن رشد من هذا الحظ النادر أوفى نصيب ، فما ظهرت فلسفته فى مكان إلا انتصب فيه ميدان كفاح ، وكان الكفاح عنيفاً والاستبسال فيه من الجانبين على غايته فى مجال الرأى والعقيدة .

ففى أوربا لم تنقطع المناقشة فى الفلسفة الرشدية من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، ثم كان لها استئناف فى القرن التاسع عشر على يد المؤرخ الباحث أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢ م) صاحب كتاب حياة المسيح ، وكتاب ابن رشد والرشدية وغيرهما من كتب البحث والتاريخ .

وشملت المعركة معسكر اللاهوت المسيحى ، ومعسكر اللاهوت الإسرائيلى فى وقت واحد ، حيثيات للشخصية كحيثيات الحكم سواء بسواء) .

وكتب العقاد عن محمد عبده ، إذ رآه (ينبوع قوة روحانية تطوى عوارض الزمن وصغائر الدنيا فيا تفيض به من حياة إنسانية ، يخلص لنا منها - بعد تمحيص الجوهر - عن نفايات الأوشاب والأخلاط-أشرف ما تتحلى به نفس الإنسان ، فى العالم الخالد الذى يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس) .

كتب عنه إذ رآه (صورة يلتفت إليها طلاب القدوة الحسنة من أبناء هذا الجيل ، فيجدون أمام أعينهم - محمد عبده - إماماً هو أولى أئمة العصر ، أن يأتم به المقتدى فيا اضطلع من أمانة العقيدة وأمانة الفكر ، وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الإخلاص للخلق والخالق ، فى كل ما يتولاه الإنسان - الجدير باسم الإنسان - من نية وعمل ، ومن سر وعلانية)(١).

---

(١) كتاب محمد عبده .

ومن شخصيات العقاد خوالد ، فى أعمالها من القيمة الباقية ما لا ينقضى بانقضاء فترة من فترات الثقافة الإنسانية أو الثقافة الأوربية مثل فرنسيس باكون .

واستحق ابن الرومى منه ما كتبه عنه بمزية (التفرد) بين شعراء عصره . فهو بينهم الشاعر الذى امتزج فنه بحياته أو انعكست حياته فى شعره وتلك هى الطبيعة الفنية التى لا غنى عنها للشاعر الحق ، والتى لا يكون الشاعر شاعراً إلا بها ، أو بنصيب منها . وهى مزية يستحق ابن الرومى من أجلها عند العقاد أن يكتب فيه كتاب مع أن حياته بأيامها المجردة (لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال) .

ولكن هوانه على الناس لم يقعد به عند العقاد فعده عبقرياً نادراً بما ذخر به شعره من سمات حياته فكان (شاعراً فى جميع حياته حيًّا فى جميع شعره ، وإن الشعر كان لأناس غيره ، كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له ، جسماً لا تكون بغيره حياة)(٢)

إن العقاد يعجبه التميز أمارة من أمارات الشخصية ولو كان هذا التميز فى أخص علائق الإنسان . وأنا هنا ألمح جميل بثينة الذى كتب عنه العقاد باعتباره (أستاذ المدرسة الغزلية التى تجرى على طريقته فى النسيب والتشبيب ، وهى مدرسة الشعراء المحبين الموكلين بمحبوبة واحدة

---

(١) ابن الرومى ص ٣٣٦ .

ينظمون الشعر فيها ولا ينظمونه فى غيرها، وقلما يطرقون باباً من النظم غير باب النسيب) .

بهذا استحق جميل شاعراً أن يكتب عنه العقاد .

قد تقول وما قيمة الغزل ليستحق صاحبه الكتابة والتاريخ ؟ وأقول قيمته أن الحب إذا صدق كما صدق من جميل له شأن كبير فى الحياة الإنسانية حتى ليعزو إليه رجال الاجتماع غير قليل من ألوان التطور فى حياة الإنسان . وما جميل صاحب الترجمة ، إلا (الإنسان حيث كان ، واحد فى كل زمان ومكان) .

ثم تبقى لجميل سمة أخرى هى فى الحقيقة سمة للعصر كله الذى عاش فيه فكان هو بشعره ممثلاً لها ودليلاً عليها تلك السمة هى شيوع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغزل فى بيئة الحجاز أو بيئة جميل حتى لا ينجو منها من عاش فيها ولو كان مطبوعاً على الجد والطموح كمصعب بن الزبير صاحب قصتى أم منظور والشعبى .

وهنا تكون الترجمة لجميل « بعض تاريخ وصورة عصر » .

* * *

والعقاد يقسم النوابغ من أصحاب الرسالات والترجمات إلى فئتين :

(فئة تظهر فى أوانها لأن أسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان . وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها ، وهى التى تظهر لتحقق تلك الحاجة التى تبحث عن صاحبها ، وله منها معين يذلل صعابها ويهدى إلى طريقها) .

• آية العبقرية عند العقاد سبق الرؤية فضلاً عن وضوحها فآية العبقرية أن (تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفراً ويحسب فى الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ومصلحة من مصالح الواقع والعيان) (١) .

وأجدر عبقرية عنده بإعجاب وتشريف معاً عبقرية (**يلتقي فيها سداد الفكر بشجاعة الضمير**) (٢) .

وهذا يفسر قول العقاد بعبقرية الصديق وعمر والإمام فإنه فيا أحسب يريد بها فى هذا المقام بالذات ، **الإلهام الربانى** ووضوح الرؤية والتوفيقات فى الرأى ، والفطنة الواجبة وبلوغ هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً غاية تثير الإعجاب عند من خبروها بالتجربة أو السماع . ولا يتجاوز الأمر هذا إلى ضلاعة العقول،أو فتوحات العلم،لأن عصرهم كانت حاجته أشد إلى نور الهدى،وخلق النفوس،وإشاعة قيم جديدة . وقد نجحوا فى هذا نجاحاً تحويلياً نقل قومهم من حال إلى حال يستحق من أجله أن يسمى(عبقرية)، لا سيا وأن نجاحهم له من المنكرين والجاحدين كفاء ما له من مؤيدين .

وقبل هذا كان محمد **عبقرياً بالدماثة** التى تزكى السامع حين لا يخفى عليه أو عليها بواطن نفسه أو كوامن طباعه .

فقد كان عمرو بن العاص مغرى بالمال جمّاعاً له . وكان النبى عليه السلام (أدرى الناس بهذه الصفة فى عمرو بن العاص قبل أن يعرفه

---

(١) الكواكبى ص ١٨١ .

(٢) الكواكبى ص ١٨٣ .

المسلمون أو المشركون بطول المراس وتعاقب الأعمال والمساعي وتفتق المطامع والآمال ، فولاه الإمارة في غزوة ذات السلاسل . وقال له وهو يعرضها عليه في دماثة وفي حصافة معاً :

« إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة » .

فأجابه عمرو ، وهو يشفق أن يظن النبي بإسلامه الظنون :

« يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة في الإسلام » .

فهون عليه النبي ما خامره من الظن ، ودفع عنه وهمه وهو يقول له :

— « يا عمرو ، نعماً بالمال الصالح للمرء الصالح » (١) .

ولم يحتج العقاد إلى إعلان العبقرية مع ابن سينا الشيخ الرئيس الطبيب الأديب الفيلسوف الحكيم العالم . . العالم بالرياضيات والطبيعيات والموسيقى أيضاً (لأنه كان طبيب العصر غير مدافع في الشرق كله ، ثم انتقلت تواليفه إلى الغرب فأصبح طبيب العالم بأسره زهاء أربعة قرون . ولم يشتهر أحد بهذه الصناعة مثل تلك الشهرة العالمية، بغير استثناء أحد، من أيام بقراط وجالينوس) .

* * *

أما من حيث المنهج — أو ، المناهج ، في الحقيقة فقد نهج الأستاذ

(١) عمرو ، ص ٢٦ — ٢٧ .

العقاد مناهج متباينة وفقاً لما تقتضيه طبيعة كل شخصية ، وطبيعة دورها ، وأثره ، وامتداد هذا الأثر فى الزمان والمكان .

ومن هذا أن يضع الأستاذ العقاد الصورة فى إطار عصرها فحين يتكلم عن ابن رشد يرسم أولاً صورة للحركة العلمية فى نشأته ونضوجه ، ثم الحركة السياسية وتأثيرها فى الثقافة ، ثم الحركة الاجتماعية ، ثم أسرته .

وبعد هذه الصور أو هذه الخلفية الواسعة للصورة الرئيسية يتكلم عن ابن رشد : آثاره وفلسفته ، وأثر الفلسفة الرشدية ثم قوة هذا الأثر .

ومع ابن سينا استهل بحديث عن الدولة والفلسفة . . . الدولة السامانية بخراسان ثم عن موقف المتقدمين عليه من مشكلات الفلسفة (والمتقدمين عليه) هؤلاء يعنى بهم العقاد (أولئك الذين سبقوا ابن سينا إلى مثل موضوعاته وكان لهم أثر فى تفكيره واعتقاده) .

ثم تكلم العقاد عن حلول الفلسفة وأشهر أصحاب هذه الحلول فتكلم عن أفلاطون وأرسطو وأفلوطين ، والفارابي أو الفلاسفة المسلمين الذين تتلمذ لهم ابن سينا نوعاً من التلمذة .

أولئك أسلاف ابن سينا الفكريون . وبين مذهبه وبين كل واحد منهم مقاربة ملحوظة فى بعض الأمور (فهو يقارب الفارابي فى التوقيعات الدينية ويقارب فرفريوس والأفروديسي فى الرموز الصوفية ، ويقارب أرسطو فى التفكير المنطقى ، ويقارب أفلاطون فى النزعة الفنية)[1] .

---

(١) ص ٨٧ .

ثم يمضى العقاد يفصل هذا تفصيلاً يقف وراءه علمه الموسوعى .

ولكن المقاربة بين مذهب ابن سينا وبين أسلافه لا تدل (على أنه كان متقيداً بمذهب أستاذ أو أكثر من أستاذ من هؤلاء الأسلاف الفكريين والروحيين ، لأنه كان يعارضهم كما كان يجاريهم ويوافقهم . وكانت أكثر معارضاته لهم فيما بينهم وبين الدين من خلاف ، فلم يكن للمذهب الفلسفى من حدود غير العقيدة الدينية وهى صحيحة عنده فى جوهرها الأصيل لا خلاف بينها وبين القضايا العقلية فى غير الظواهر والعروض)(١).

ثم خلص العقاد بعد هذا للحلول التى ارتآها ابن سينا لمشكلات الفلسفة الإلهية وهى العالم ، والنفس ، والخير والشر ، والحرية الإنسانية .

ثم تكلم العقاد عن (عقيدة الفيلسوف) . .

تكلم عن ابن سينا الطبيب .

وابن سينا الأديب . . .

وابن سينا ذى الشخصية الجامعة .

إذن ،العظيم للبيئة والوراثة دخل فيه وإن لم يكن كل شىء أو أكبر شىء .

بل إن العظمة أو العبقرية فى مفهوم العقاد هى شخصية فذة متميزة بالتفرد الفوق . . شخصية فعالة بذاتها وقدراتها فى عصرها وغالباً يمتد قوة أثرها إلى عصور قريبة أو بعيدة . . . تغيب هى ويبقى الأثر .

وابن سينا بعد هذا عند العقاد (موسوعة حية وعبقرية ملهمة وعقل

---

(١) ص ٨٩ .

فعال لأنه فعل فى مجال الثقافة الإنسانية قصارى ما تفعله العقول)[١].

أما الفارابى فقد قدم بين يدى الموضوع بمقدمة عن تيارات الفكر العربى واتجاهاته من العصر الجاهلى إلى منتصف القرن الرابع الهجرى وهو الوقت الذى وجد فيه الفارابى.

ثم عرف به وبنسبه ونسبته وبعدها اتجه مباشرة إلى مؤلفات الفارابى ليخصها بتفصيل. **فالعقاد غير ملتزم خطًا جامداً لا يتحرك بل إنه يكيف** الشخصية وفق ملابساتها الخاصة حتى لتحس معها ومعه أن«كلا» له طابعه الخاص كشأنه فى الحياة.

وفى كتاب التعريف بشكسبير تناول :

عصر شكسبير – الشعر والمسرح – أسرة شكسبير . . .

الرجل – الفنان – المؤلف – الشاعر – الخصائص والمزايا – مصادر الروايات – نسبة الروايات – تراث عالمى.

وأحياناً يؤرخ العقاد بين يدى الترجمة للمدينة مربى الشخصية ومهبط رأسها كما صنع مع عبد الرحمن الكواكبى.

والعقاد بين يدى الترجمة كثيراً ما يقدم دراسة للعصر الذى عاشت فيه الشخصية أو ما قبله، إيماناً منه بدور العصر والبيئة والعوامل المساعدة فى فن تكوين الشخصية الإنسانية جنباً إلى جنب مع المواهب الخاصة والخصائص الذاتية.

بل يندر جداً عنده : (أن يشتهر رجل أو يرتقى سلم المناصب الرفيعة

---

(١) بنيامين فرانكلين . ص ١٥ .

ثم لا يكون للعصر أثر فى أخلاقه إن لم تكن أخلاقه كلها مشابهة لأخلاق عصره ، لأن الشهرة وارتقاء المناصب تجاوب بين الرجل وأهل زمانه ، وقلما يتأتى هذا التجاوب بغير مماثلة أو مقابلة بين الشيئين المتجاوبين)[١] .

وهو يرى أن (كل رسالة فى عالم الفكر أو الروح هى رسالة توكيد وتقرير أو رسالة توسيع وتحويل ، ويندر جداً أن نرى فى عالم الفكر والروح رسالة ابتداء وابتداع لم يسبق لها تمهيد طويل) .

ويزيد هذه الحقيقة توضيحاً فيقول : (إن الرسالات الفكرية أو الروحية تسبقها رسالات من قبيلها تتناول أطرافها ومبادئها وتهيئ الأذهان لانتشارها والتوسع فيها . فكل رسالة كبيرة هى بمثابة كتاب من أجزاء متعددة ترقى من البداية إلى النهاية جزءاً بعد جزء ودرجة بعد درجة. ولم يحدث قط أن رسالة فكرية أو روحية تمم الإنسانية ولدت فجأة أو خلقت خلقاً بغير سابقة تمهد لها الطريق وتهيئ لها الأذهان)[٢] .

لا بد من تمهيد وارتياد واطراد :

وإذا كانت الشخصية متعددة الجوانب غنية باللمحات والقدرات فإنه يتناولها قيمة كبرى يطرد القول فيها جوهرياً لا تفسده التفاصيل. فهو مع بنيامين فرانكلين يعطى صوراً متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقرية دون أن يحفل فيها بسجل الأرقام أو بإحصاء الأيام. ولم يكتبها ليبدأ فيها

---

(١) برناردشو ص ٧ .

(٢) بيكون ص ٥٤ .

بسنة الولادة ويختمها بسنة الوفاة ويمضي فيها مع التقويم شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، ولكنه عمد إلى عرضها (لمحة بعد لمحة تتم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر إليها ، وقد يتابعها القارئ فلا يفوته من ذلك سجل الأرقام ولا إحصاء الأيام وإنما يلم بها حيث يعبرها فى طريقه ويستغنى عنها بعد ذلك إذا شاء،أو يبقيها على حد سواء)[١] .

والعقاد فى تراجمه الأدبية يحتم دراسة العصر الذى نشأ فيه الكاتب لأن (الكاتب قد يسبق عصره فى أشياء ، وقد يتخلف عنه فى أشياء ، وقد يخالفه فى أشياء ، ولكنه لا ينفصل عنه كل الانفصال فى جميع الأشياء . فلا بد بين الكاتب والعصر الذى ينشأ فيه،من صلة،نعرفها لتمام التعريف به والاستدلال على مصادر أدبه وقواعد تفكيره . .)[٢] .

تلك الصلة يسميها العقاد (**البطانة الثقافية**) . .

إنه ينظر بعين الاعتبار إلى فعالية البيئة الخاصة للفنان والبيئة العامة ، فكما قال فى حديثه عن برناردشو (نشأة الكاتب فى بلده،ونشأته فى أسرته، ونشأته من أبويه ، ونشأته فى جيله السياسى ، ونشأته فى جيله الثقافى — كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر حياته أو عنصر من عناصر استعداده وعمله فى حياته الفنية والثقافية) .

ويتعاطف العقاد مع الشخصية التى يترجم لها إذا لاح منها وفاء لإنسانية الإنسان . فى أى مكان.فإذا كانت مصر أمل هذا الوفاء وغايته

---

(١) بنيامين فرانكلين ص ١٥ .

(٢) برناردشو ص ٧ .

أحس العقاد الأمر كأنه دينه الخاص الذى يؤدى فيه واجب الشكر والجزاء . مثال هذا موقفه من (شو) رداً على موقف شو الكريم من الأمة المصرية بعد حادث دنشواى .

ويراها كلمة واجبة فى كل ترجمة لبرناردشو تكتب فى مصر باللغة العربية وإن كان (التعريف بهذه الناحية الإنسانية لازم فيما يكتب عن برناردشو حيثما كان كاتبوه) [1] .

* * *

على أن العقاد أوضح بنفسه ، فى كتابه عن عثمان بن عفان ، طريقته فى الترجمة وغايته منها وهما يكادان يكونان شيئاً واحداً هو (**التعريف بالنفس الإنسانية فى حالة من أحوال العظمة والعبقرية أو حالة من أحوال النبل والأريحية** ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنسانى، وتخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكاً غير مسلك التخبط والضلال) [2] .

وشرط العظمة عند العقاد فيمن ترجم لهم : (**همة الجبابرة من رجال العمل ، وطموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة**) .

يظاهر هذا ويقف وراءه خلق مكين (يقاوم كل إغراء ولا يتخاذل أمام الوعيد) .

وهو يرى فى عظمة العظيم أو عبقرية العبقرى **صورة من صور العظمة الإنسانية**، وهى بهذا وحده تستحق الوقوف عندها والكتابة عنها فضلاً عن

---

(١) أنظر ص ١٦ .
(٢) ذو النورين ص ٧ .

دلالتها فى تفسير أطوار الأمم وأسرار التاريخ .

بهذا الاعتبار كتب العقاد ما كتب غير ملق بالاً إلى غيره من اعتبارات يفسر هذا كتابته عن غاندى وعن محمد على جناح وبين الهند وباكستان ما بينهما فى تاريخ الإنسان ، لا رعاية لدولة الهند أو باكستان ولا لمرجع من مراجع السياسة ، فنى كتاب غاندى ما لا يوافق الهند ولا يوافق الباكستان .

* * *

والأستاذ العقاد فى كتابته عن العبقريات أو العباقرة يجمع بين فلسفتين متباينتين فى تدوين التاريخ : هل البطل يصنع التاريخ أم التاريخ هو الذى يصنع البطل ؟

أو كما يتساءل العقاد فى كتابه (محمد على جناح) [١] هل للبطولة شأن فى حياة الأقوام أو هى فى حياة الأقوام صفر على اليسار ؟ هل المادة وحدها هى الترجمان المفسر للتاريخ،أو لهذا التاريخ مفسرات أخرى قد تهزم تفسير المادة وتنقضه وتتحداه ؟

الأستاذ العقاد يرى أن العبقرى الفنان يولد (كالغلة التى تنبت على غير قصد فى فرع من فروع شجرة الحياة ، ثم تصبح الغلة مثلاً يحتذى وقالباً يصب فيه الأنداد والنظراء .

والبطل والعبقرى يتشابهان فى التفدية بكل شىء فى سبيل الغاية التى يقصدان إليها أو ينساقان إليها على غير قصد منهما ، والناس ينساقون معهما ولو أهلكتهم مطامع البطولة ، ومطالب العبقرية) [٢] .

(١) ص ١٧٨ .

(٢) برناردشو ص ١٢٢ .

وأرى أن البطل بعد الموهبة ، من صنع بيئته واللحظة المناسبة .

* * *

ويفرق العقاد بين العبقرى والبطل بقدر ما بينهما من أفضلية العبقرى (فإن البطل قد ينحرف عن الجادة الكبرى مرضاة لكبريائه وسلطانه ، ولا يكترث العبقرى لجاه أو سلطان إذا حادا به عن غايته ، وهى خلق الأمثلة الجديدة والقيم البديعة فى أحلام الناس ، ثم فى واقع الحياة) [1] .

وحين يعتمد كاتب ترجمة على آراء الناس فى الشخص موضوع حديثه فإن العقاد يعول أكثر على أقواله هو فى الناس (وإن الناس قد يغبنونه بعض حقه وقد يعطونه فوق حقه ، وقد يختلفون — بل لا بد أن يختلفوا — فى النظر إليه .

أما أقواله فى الناس فلن تظلم شيئاً فى الإبانة عن مبلغ فهمه وطوية نفسه وطبيعة خلقه ومقياسه الذى يقيس به الرجال والأعمال من وحى تفكيره وشعوره وخلجات ضميره) [2] .

وحين تكون العبقرية عبقرية فنان،فإن العقاد يرى أعمال الفن ذات رسالة فى تاريخ الفكر الإنسانى تتحقق بإلغاء تلك الفروق والمفارقات — وفى الذوق والتذوق — وإدماجها الثابت وتعبر الزمن من فوقها ومن ورائها فى حياة واحدة باقية هى حياة الإنسان الخالدة فى مرآة العبقرية الخالدة . وهى تؤدى الأمانة الكبرى فى طريقها الثابت لا تعتمد على سطوة تحميها، ولا تحفل من سطوة تنازعها. وهذه هى أمانة الفكر الإنسانى من قديم

---

(١) برناردشو ص ١٢٤ . (٢) ص ١٢٦ .

الزمن سبقت دعوة الداعين وعظات الواعظين، وعرفت الإنسان (إنساناً) واحداً قبل أن يلفظ بها رسل الدولة وسماسرة السلطان مخلصين وغير مخلصين .

واستدل على هذا بعالمية شكسبير وإنسانية عبقريته ، فرواياته (تنقل إلى اللغة العربية تامة محققة فى عهد استقلال ولم تنقل على هذا المثال خلال سبعين سنة فى عهد حماية أو احتلال .

سطوة الدولة لم تكن لها يد بالأمس فى « ترويج » شكسبير بين الفرنسيين والألمان والروس ، وسطوة الدولة لم تروجه بين المصريين وهم يعملون بأعينها ولا يفلتون من قبضة يدها .

أخذته الأمة حصة من التراث الإنسانى لا تنزل عنها ، ولم يفرض عليها ضريبة تدين بها لمن يغلبها ويتحكم فيها .

وتلك آية « الفكر » الإنسانى فى الآداب العالمية كل أمة تسأل عن حصتها منه ، لأنه تراث مدخر لجميع بنى الإنسان)[1] .

يعرف الدكتور مصطفى سويف العبقرى الفنان بأنه إنسان (تنتظم علاقته بمجتمعه الخاص فى صورة تعارض واختلاف يصحبه الشعور بالحاجة إلى إنهاء هذا الخلاف وإقناع الآخرين بوجهة نظره .

فإذا صحب هذا الخلاف وما ينجم عنه من توترات وانفعالات عميقة.. إذا صحب ذلك استعدادات خاصة ومجموعة من القيم تبرز

---

(١) التعريف بشكسبير ص ٢٢٥ .

للعبقرى الناشىء نماذج معينة من الأشخاص يتعلق بهم ، انطلق هذا الناشىء يطلع على أعمالهم ويتمرن على الإنتاج فى الاتجاه الذى أنتجوا فيه ، محاولاً أن يقلدهم أحياناً وأن يتحرر من نماذجهم أحياناً أخرى .

حصيلة هذا أن العبقرية تفرد يؤيد استحالة التساوى بين الناس فى المواهب ، بل استحالة إنقاص الفارق بينهم فيها.فالعبقرية كما يقول « سدنى هوك » فى كتابه « البطل فى التاريخ » ليست حاصل مواهب مركبة ، وإلا فكم فيلق عسكرى يوازى ويعادل نابليون ؟ وكم من علماء الطبيعة العاديين يمكنهم أن يقوموا بالعمل الذى قام به انيشتين ؟

إن أسئلة من هذا النوع لا تطرح للإجابة عنها إنما لتقرب إلى الأذهان حقيقة أن العبقرية شىء فريد) (١) .

إن العبقرى ابن موهبته أولاً وإن كانت الظروف المساعدة تسعد بالتوفيق . (إن بعض فترات التاريخ هى بدون شك أكثر قابلية للتفاعل مع العبقرية،أى أكثر تنشيطاً لها وأكثر تحمساً لها من غيرها من الفترات فهى تمكن العباقرة كما تمكن العاديين من النجاح والفلاح وبالتالى لا يمكن أن تعتبر فى تمخضها عن العباقرة بأنها المصدر الخلاق للعبقريات بأكثر مما يمكن اعتبار رقعة خصبة من الأرض تنبت عليها الأزهار النادرة والأعشاب الطفيلية العادية المصدر الخلاق لتلك الأزهار) (٢).

---

(١) كتاب العبقرية فى الفن ص ٣٧ .

(٢) كتاب العبقرية فى الفن ص ٣٧ .

إن العبقرى ابن موهبته الخاصة أولاً وأصدق ما يكون هذا على أصحاب الفنون ومبدعيها (فإن للتقاليد الفكرية والحاجة الاجتماعية وتنظيم المجتمع العلمى تأثيراً فى مكتشفات العلماء أعظم من تأثيرها على إبداعات وابتكارات الفنانين ورجال الأدب . فإن الإبداع الجديد فى شكله وأسلوبه المميزين له عن غيره فى الميادين الأدبية والفنية هو بديهياً عمل قام به فرد . ومن السخف ، برغم كل اعتماد ذلك الفرد على حضارته واتكاله على ثقافته ، الاعتقاد بأن العالم خليق بأن ينعم بعمل ذلك الفرد الفنان عن طريق شخص آخر لو أن ذلك الفرد الفنان لم يولد . فليس باستطاعتنا أن نتصور صورة سستين مدوناً « الموناليزا » بدون الرسام روفائيل وسمفونيات بيتهوفن . أما فى الميدان العلمى من جهة أخرى فإنه من المحتمل جداً أن يتم الوصول إلى معظم اختراعات أى عالم معين بواسطة أفراد آخرين ، عاملين فى الميدان نفسه)(١).

وكتاب العقاد ساعات بين الكتب يكشف عن إعجابه الشديد بپلوتارك كما كان معجباً بلودفيج وهما من أصحاب التعاطف مع العظمة ونفحها بالإنسانيات التى تقربها إلى القلب بما فيها من ملامح إنسانية هى خير ألف مرة من التطويب والتقديس الذى يفصمها من الناس ويرفعها ولكن إلى مراتب الغرابة والإعجاز المعزول .

وإعجاب العقاد بپلوتارك ولودفيج يعكس بطريق غير مباشر رأيه الشخصى

---

(١) كتاب (البطل فى التاريخ) تأليف سدنى هوك ، ترجمة مروان الجابرى ، مراجعة د . أنيس فريحة .

فى كتابة التراجم. فما كان ليعجبه هذا المنحى إن لم يكن فيه من رأيه مشابه ومن اتجاهه موافقات .

ومنهج البحث عن الفتات الإنساني انتهجه « اندريه موروا » و« ستيفان زفايج » و « لودفيج »، كما أن منهج تفسير الأحداث تفسيراً عقلياً وكشف القوانين المتحكمة فى سير الحوادث ومحاولة إيجاد ترابط بينها أخذ به المفكر الألماني (اشبنجلر) ، ومن المعاصرين الأستاذان « أرنولد توينبى » و « بيتريم سوركين »، غير أن العقاد اختلف عنهم فى عدم التزام الخط التاريخى حين زاد عليهم التفسير النفسى والخلق. (والوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لا يزال اليوم وبعد اليوم صعباً وجديداً إلى أمد بعيد) .

الأستاذ العقاد يفسر التصرفات على طريقة التعريف المحدد وهو يريحك بإعطائك النتيجة والرد على أسئلتك الحائرة وكشف الغموض الذى يلف عادة شخصية العظيم .

هذا حين يعرض أندريه موروا التصرفات فى شريط ويدع لك التفسير كما يدع لك تلوين فكره بنفسك . اندريه موروا يشوقك ويشدك إليه حين يجعلك تلهث وراءه لمعرفة النتائج والنهايات .

* * *

وللأستاذ عبد الفتاح الديدى رأى فى تفسير ميل الأستاذ العقاد إلى كتابة التراجم والسير بعامة[1] وهو رأى أملاه حب وحماسه الشخصى

(١) عبقرية العقاد ص ٣١ .

للعملاق، فجعله في مقام الدفاع عنه أمام أصحاب الشهادات ممن لم يعطوا عطاءه للعلم والأدب ، يفسر اتجاه العقاد إلى التأليف عن الشخصيات وعمل ترجمات حياة للشعراء والأنبياء وكبار المفكرين ، برغبة التعويض وكأن العقاد تنبه إلى شئ هام جداً في حياته (وهو أنه هو نفسه الذي لا شهادات له يقوم بمنح الشهادات إلى كبار العباقرة والمفكرين والقواد والشخصيات ، لقد كانت ترجمته وكتابته لسيرة من السير نوعاً من الشهادة للشخصية التي يكتب عنها . واختص باكتشاف الجوانب الرائعة في كل شخصية من هذه الشخصيات حتى أحس العقاد بأنه يستعرض ملامح من يترجم له على نحو يثبت عبقريته في ناحية من النواحي ولا يبزه فيها أحد)[١].

واستهوت الأستاذ الديدى ، الفكرة على ما يبدو فاسترسل يقول : (كانت كتب العبقريات ودراساته عن ابن الرومى وجوته وشكسبير وبرناردشو ترفعه إلى مستوى من يقدم إلى هؤلاء جميعاً الشهادات التي تميزهم بالعبقرية والنبوغ والامتياز ، ووجد لذة كبيرة في كتابة التراجم والسير . لهذا كان حماسه في إثبات دعواه التي يفتتح بها ترجمته لكل هؤلاء نوعاً من استعراض قدرته وقواه العلمية في إثبات كفايته هو نفسه في تقدير النابهين والأذكياء، وكأنما يقدم في كل كتاب دعوى تشبه دعوى الأكاديميين في بحوثهم الجامعية للدكتوراه، وكأنما يفتقر هؤلاء العباقرة إلى شهاداته التي لولاها لظلوا مغموطي الحق مجهولين من الناس . فدراساته هي شهادات لمن تلزمه، ورأيه في شخص ما، يكاد يكون من الاتزان والدقة

(١) المرجع السابق ص ٣١ .

بحيث لا يصبح له أن يجنح به نحو الهوى فى معاملة معاصريه)(١).

وعندى أن العقاد كانت ثقته فى نفسه وعدم مبالاته فى الوقت نفسه برأى الآخرين فيه ، مدحوا أم قدحوا ، لا تتفق معها الرغبة الحادة فى إثبات تفوقه وهو لا يحتاج إلى دليل . ولا أحسب أنه كان يفكر فى الشهادات وأصحابها ويشغل نفسه بهذا إلى الدرجة التى يكرس نفسه وجهده فى كتابة تراجم وسير لمجرد الإحساس بإعطاء شهادات لأصحابها الأعلام .

لم كل هذا ؟ أليس الأسهل لو حاكت بصدره يوماً هذه الرغبة أو هذا الشعور أن يقبل منصب عمادة كلية الآداب التى عرضها عليه محمد محمود باشا ورفضها ؟

إن هذا المنصب بالذات خليق بأن يشبع رغبة الاستعلاء على الشهادات ورغبة إعطائها لمحبيها والراغبين فيها والمستعزين بها .

وقد يفسر برغبة التحدى والاستعلاء على حملة الشهادات ، الكتابة عن أصول البحث العلمى عند أكبر دارسى المنهج فى العصر الحديث وهو فرنسيس بيكون أستاذ المناهج والأصول الفعلية للأبحاث والدراسات ، ولكن الأنبياء ، بجوهم الخاص وواقع عصرهم المعين ليسوا بحاجة إلى شهادات أو تزكية ، بل إن خيرهم (الأمى) الذى دانت به العلماء .

إن الكتابة عن الأنبياء والشخصيات الدينية تحتاج إلى فيض فياض من العاطفة قبل أى سبب آخر .

---

(١) كتاب (عبقرية العقاد) .

ثم إن الكتاب الباقى إن صح أن يكون شهادة ، فهو شهادة لصاحبه أولاً بما فيه من دلالات القدرة .

قد يفسر برغبة التحدى والاستعلاء مشاركاته المتنوعة الخصبة العميقة، فى موضوعات كثيرة تنتمى إلى العلم مرة وإلى الفن تارة مما يحسب التخصص فى واحد فقط منها ، مزية لصاحبه كأنما يقول (وفى الناس واحد كالألف) . ومن هذا صولات العقاد وجولاته فى ميادين أصول الفلسفة ومذاهبها وفى تحليل جزئياتها الخاصة بالسببية وعناصر الوجود وطبيعة الحياة ونظريات نيتشة وشوبنهور وكانت وداروين وآراء استيوارت مل ، وهيوم .

لقد كتب العقاد عن أشخاص بينهم من الاختلاف ما بين عمر ابن الخطاب وعمر بن أبى ربيعة كما أشرت ، إذن ملاك الأمر قدرات فيه وهبها يجلوها بقلم موهوب ولا يعنيه بعد هذا أن يعطى بها شهادات — أو يأخذ عليها شهادات .

ثم هو كما يقول الأستاذ الديدى — وهنا أتفق معه — صاحب فكرة تبدو من وراء الكلام الذى يورده على لسان غيره . فهو كاتب ذو اتجاه ، وكثيراً ما يسقط هذا الاتجاه على الذين يترجم لهم حتى لتحسبه هو نفسه المتكلم وليسوا هم . وفى أغلب الأحوال كان ينطق فى الكلام عن تجاربه الشخصية إذا ما تشابهت مواقفه ومناسباته الجزئية مع ظروف الإنسان الذى يترجم له . وهنا تقترب الترجمة من الفن القصصى الذى كثيراً ما يكون البطل فيه صورة من المؤلف .

وعندى أن كتابة العقاد للتراجم والسير إنما هى لون من تجميل الحياة

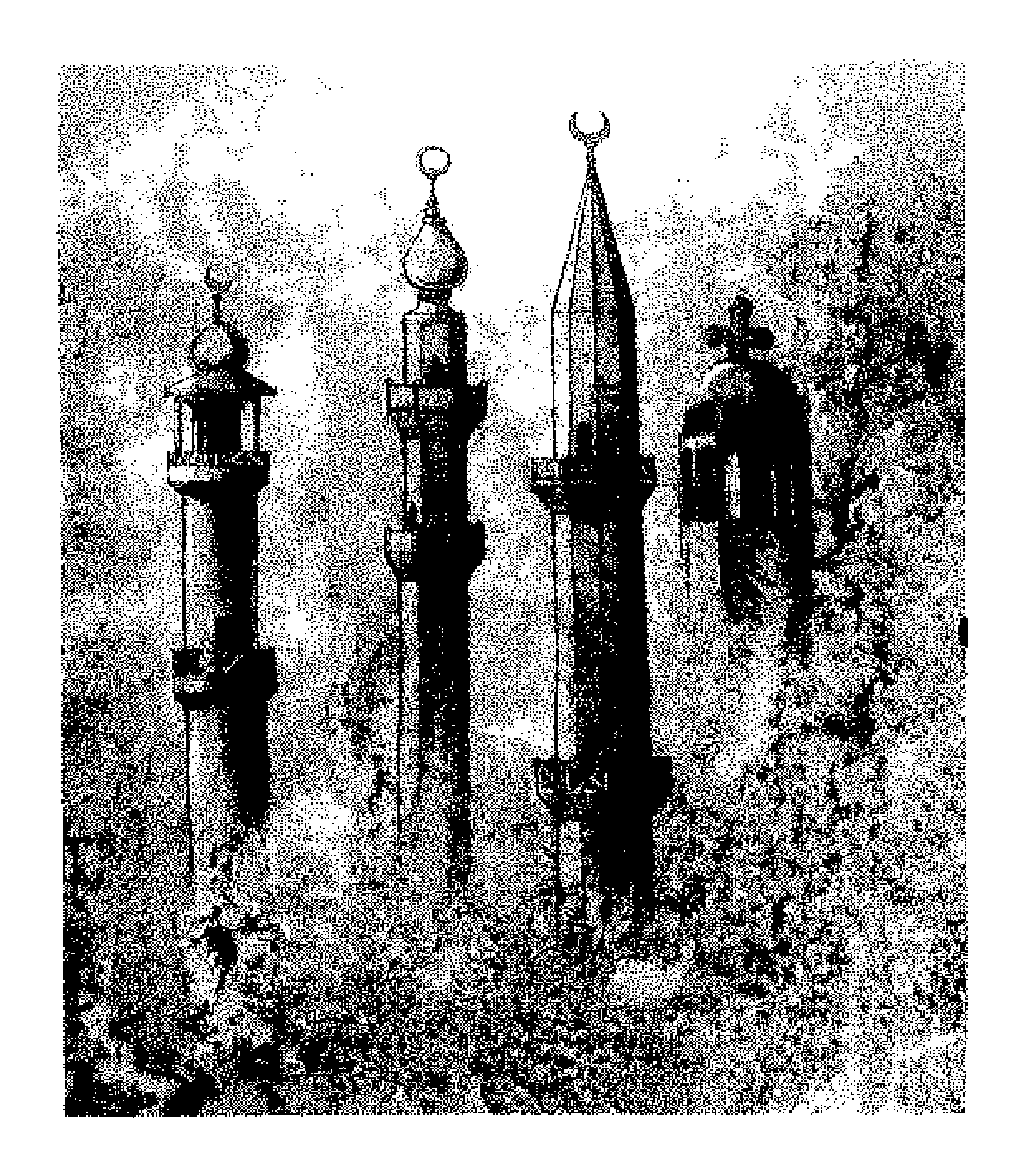
بالفن وبالصدق معاً يخلص إليها عن طريق التراجم كما يخلص إليها فنان آخر عن طريق النحت أو التصوير أو الغناء . (فكل حياة – كما يقول – خلت من الجمال الفني ومن الصورة المثالية التي يسبغ عليها ذلك الجمال هي حياة فاترة أو حياة ناقصة لا تستحق أن تعاش . وإنما هو مقياس الحياة التي تكتب عنها التراجم والسير هي الحياة التي تعاش) .

وكتابة العقاد للتراجم سبيله وسبيلنا معه إلى النفاذ إلى النفس الإنسانية وسبر أغوارها ، والنفس الإنسانية غاية ما يشغل الإنسان ويستثير اهتمامه وعطفه وتقديره .

وكتابة العقاد للتراجم إنصاف واعتراف

وكتابة العقاد للتراجم وفاء وحث على الاقتداء برسم الصورة، وتمجيد البطولة، وغرس الأمل في الإنسان، والإيمان به ، على الرغم من نواحي الضعف فيه وجواز الخطأ عليه . وما بالقليل هذا في دفع مسيرة الشعوب وتغذية مطامحها .

* * *



الفصل الثاني

عبقرية المسيح

عالية تعلو خمس قامات وتزداد . . .

باقية تبقى خمسة قرون ثم لا تصير إلى نفاد . .

كريمة ، تؤتي من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهى به طيب الطعام ، سعيدة تؤتي من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب وجبائر العظام .

من خشبها صور المحاريب وأعواد المنابر .

ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر .

وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلباً لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ويرفعون غصن الزيتون .

بوركت في وحي المعابد والضمائر ، وبوركت في رموز القرائح والخواطر ، فلم يعرف الناس أمثية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها . ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها إلى الضياء ورمزوا بها إلى السلام ، ورمزوا بها إلى الخير والرخاء ، وتزودوا منها في البادية والحاضرة ، وادخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح في محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا إليها باسم من أقدس الأسماء ، هو اسم « السيد المسيح » .

* * *

بهذا الشعر الرفيع قدم الأستاذ العقاد بين يدى عبقرية المسيح . وقد استحقت شجرة الزيتون هذا الوصف فى أدبه بما وهبت من مسحتها للرسول الأمين .

ولو لم تكن « للزيتونة » إلا أن هذا الاسم المبارك مردود إلى مسحتها وبركتها لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون .

* * *

تناقض وصف الواصفين للسيد المسيح والكاتبين فقال قوم : بأنه وسيم وقال الآخرون : دميم .

ومال العقاد إلى الوسامة بما ساق بين يدى الرأيين من حجج المنطق، ولكنى أحسب أنه مال إليها أيضاً باعتزازه الكامن بفردية العظيم وتفرده .

فالعقاد من بين الأقوال والأوصاف التى تتعلق بالمسيح ثم من بين ما استخرجه لنفسه من أقواله هو ومنازعه ، رأى المسيح مأنوس الطلعة يتكلم فيوحى الثقة إلى مستمعيه . . (مواهب نفس) ورآه فصيح اللسان سريع الخاطر له قدرة على وزن العبارة المرتجلة، لماذا ؟ (لأن وصاياه مصوغة فى قوالب من الكلام الذى لا ينظم كنظم الشعر، ولا يرسل إرسالاً على نسق. ويغلب عليه إيقاع الفواصل، وترديد اللوازم، ورعاية الجرس فى المقابلة بين السطور)(١).

ورآه ذواقة للجمال محباً للأزهار والكروم والرياض والمروج حتى بلغ من حبه الطبيعة أنه كان يتخذ من السفينة على بحيرة طبرية ،

---

(١) عبقرية المسيح ص ٩٣ .

منبراً يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب (كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم)(١).

ورآه جذاباً بما يبسطه من طمأنينة،وما يشيعه من حنان الطهر والقداسة .

ورآه وديعاً وأعلى ما تبلغ الوداعة فيه ذروتها حين تصير رحمة بالخاطئين والعاثرين (وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تأتى من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات)(٢).

والإنسان فى صورته العليا عند العقاد — من خلال المسيح — هو الذى يجمع بين القسوة والرحمة فى إهاب واحد.فليست المثالية أن يكون طرازاً غير بشرى،ولكن المثالية أن يكون بشراً يخضع لنواميس البشر ثم يجالد الضعف الكامن فى الغرائز وينتصر عليه ما استطاع.وحين لم يستطع يكون الأمر قد جاوز حده إلى الحد الذى ينفى العجز عن القدرة فلا يكون عاجزاً من لا يستطيع .

من هذا أن المسيح (الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة) .

ومن هذا أن المسيح وهو من أصحاب الرسالات بما تتطلبه الرسالات من استبسال كان يشكو حزنه وبثه حين أحدق به الخطر،وأنه كان يدعو الله أن يجنبه الكأس الذى هو وشيك أن يتجرعها.(فليس الإقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف ، وليس

(١) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ .

محظوراً على النفس فى سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وإنما المحظور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح.وفى غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام)[١].

فالعقاد يدور حول الشخصية ويلف طويلاً بعين لماحة وأذن مرهفة . إنه يتسقط كل حرف يخرج من فمها فى سبيل الوقوف على سرها أى مفتاح الشخصية ليدخل إلى رحابها وشعابها ، فاتحاً به كل قول مستغلق ، أو تصرف يحتمل التأويل والتعليل .

وقد وجد هذا المفتاح فى شخصية المسيح فى (ابتهالة) كان يرددها فى أخريات رسالته وهى قوله : (اللهم جنبنى هذه الكأس ، لكن كما تريد أنت لا كما أريد) .

لأنه يرى أن القاعدة الأساسية فى طبيعة الرسل هى أن الشك أخوف ما يخافونه ، وأن استبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه وعلى ضوء هذا رأى موضع الشبهة فى نفس المسيح : (إن السلامة هى ما يريده ، وإن النكول هو طريقه إلى اجتناب الكأس.فليكن مسيره إذن فى غير هذا الطريق وليكن التسليم هو طريق الإيمان)[٢].

والعقاد يدرس الشخصية الإنسانية بوجدانه وعقله معاً . وعقله دائماً منطق استقرائى فهو يؤمن ، (اطراد السنن الكونية فى الحوادث الإنسانية

---

(١) المرجع السابق ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٩ .

الكبرى فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه »(١).

حتى العصور التاريخية لها عنده مفتاح هو هنا « آفاتها البارزة » التي تكون علامة طريق ونقطة تحول .

وهو يهتم بهذه الظاهرة اهتماماً خاصاً في سير الأنبياء وتاريخ الرسالات .

ويبدو من استقراء كتابات العقاد أن **آفة كل عصر عنده هي انتقال الحضارة من الداخل إلى الخارج** أو من النفس إلى الجسد فتصير إلى (أشكال وقشور حيث لا جوهر هناك ولا لباب) .

وهنا تغيم الرؤية أو تتضح ولكنها في الحالين تحلم بالخلاص .

وهنا يكون ظهور الرسل أو **المصلحين** أو الأفذاذ ضرورة يقتضيها عصرهم **ونتيجة** تسبقها،إن لم تكن سبقتها بالفعل ، ومنذ أمد طويل ، مقدمات .

والعقاد الذي له في ذهن الكثيرين ، خاصة من لم يعرفوه عن قرب ، صورة قوية صارمة،تعجبه السماحة في نفوس السمحاء،واللين والعفو يصدر من الأقوياء القادرين على العقاب .

ففي كتابه عبقرية المسيح كانت سماحة السيد وإنسانيته،سر عبقريته عند العقاد . . إنسانيته الغفور التي علمت ناساً في عصرها من دروس الحب القدسي،ما لم تتعلمه من دروس العقاب .

والمثل عند العقاد : المرأة . . المرأة التي كانت ضحية الضحايا في

---

(١) عبقرية المسيح ص ١٠١ .

ذلك العصر لأنها لم تزل ضحية الضحايا فى كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب،ويطغى عليه الحرمان من جانب،ويعم الرياء فى كلا الجانبين ، ولم تزل فى كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها .. فتنة الغواية ، وفتنة الفاقة،وفتنة الأسرة المنحلة،وفتنة الحيرة التى تعصف بالثقة والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة فى كل زمان .

ونظرت تلك الفريسة التى لاحقتها اللعنة أحقاباً بعد أحقاب،وأطبقت عليها الفتنة فى ذلك العصر خاصة آكاماً فوق آكام — فإذا (حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ، ويشيع الأمل فى رحمة الله بين جوانبها . فعلمها درس من دروس الحب القدسى ما لم تتعلمه من دروس العقاب فى شريعة المنافقين وموازين المقسطين . وبرزت على صفحة الزمن فى ساعة من ساعات ذلك العصر الجريح صورة مشرقة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهى باقية عالية : صورة الغفران ماثلة فى شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة فى شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها)(١) .

حقًّا من أحب كثيراً غفر له الكثير من خطاياه كما قال السيد ، ولكن العقاد حتى فى مواقف الطيبة والسماحة يأبى إلا أن يقرنها **بالذكاء** صفته المفضلة بين الصفات النوابغ فهو لم يكتف بغفران السيد لخاطئة تتمسح بأعتابه وتتعلق بأهدابه ، بل وقف وقفة أطول ، بموقف من مواقف

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ .

الذكاء والنفاذ نجح فيه السيد وأخفق متحدوه الذين تعمدوا — وهو في الهيكل — أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة . فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : أيها المعلم هذه امرأة أخذت وهى تزنى ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ إن الشرك مكشوف على وجه الأرض وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا . إن قال : أرجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وإن قال أطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل. فكيف الخلاص من جانبى الشرك ، ولو أنه مكشوف معروف .

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهى من القضية إلى حل لا يدعى به السلطة،ولا ينكرها،ولا ينساق فيه إلى مجاملة الرياء بالدين ، والكبرياء بالتقوى . ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذى دفعوه إليه . وهو يستمع إليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف ورد عليهم رياءهم فى وجوههم.وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه وهو يقول لهم : (من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر) . ما أروع حديث العقاد بعد هذا وإن طال الاستشهاد .

لا ينقض شريعة موسى،ولا يدعى تنفيذها،ولا يجامل رياءهم،بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالزوغان .

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه فسألها بسؤال العارف .

أين المشتكون منك . أما دانك أحد ؟ فقالت : لا أحد أيها السيد فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك فاذهبى ، ولا تخطئى .

(نعم لا يدينها ولا يحسب عليه أنه لا يدينها فى تلك القضية ولو كان هو قاضيها لأن القاضى لا يدين بغير شكوى وبغير شهود وبغير بينة) [١].

الذكاء ووضاءة التفكير والتعبير من علامات الشخصية التاريخية عند العقاد فعبقرية المسيح ترى ، فيما يرى ، فى الردود السريعة والأجوبة المسكتة (التى تدل إلى جانب أدلة كثيرة على الشخصية التاريخية) .

بإشراقات الذكاء وعطاء القلب والضمير أثبت السيد المسيح وجوده التاريخى وجلاله الأدبى،وإن تجنبت رسالته التشريع وزهدت فى سلطات الدنيا والدين .

* * *

هذا هو المسيح ومن بعده ، أتى « أحمد » ليكمل بالتشريع رسالة السيد ، ويختم بالقرآن من وحى ربه ، والحديث من هدى أدبه ، عطاء النبيين لتبدأ مسيرة العبقريين الإسلاميين .

* * *

---

(١) عبقرية المسيح ص ١٢٥ .

الفصل الثالث

عبقريات العقاد الإسلامية

عبقريات العقاد الإسلامية أسلوب فى الترجمة ومنهج فى الدراسة قلما تخطئه عين منصفة .

والعقاد فى عبقرياته يبث قيماً ينشدها الدارس والقارئ بعامة، والمسلم بخاصة، ولا سيما إذا كان طريق الوصول إليها صعباً والريادة فيه عسيرة ، وهنا يتصدى للأمر قوة المنطق فى العقاد ، وحركة الذهن عنده وهى قوية قادرة ، الذهن الثاقب وقدرة المناقشة التى تحكّم **المقابلة** ، **والمضاهاة** ، **والعلم** ، بل تخدم **الزمن نفسه** بما تعين عليه أحداثه قبل ظهور السيرة وبعدها .

وتتمثل قوة المنطق فيه وقوة التفلسف التاريخى فى تناوله موضوع تقديم أبي بكر فى الاستخلاف .

ومن خصائص العقاد تخديم الأفعال اليومية للوصول إلى دلالات كبيرة على الشخصية ، وهذا هو الجديد الذى فعله العقاد ، فالحوادث والتصرفات وقعت من أصحابها وعرفت عنهم مروية أو مدونة، ولكنها فى كلتا الحالتين صماء إلا عن المعنى الظاهر من ظاهر الألفاظ والحروف، حتى إذا استشفها العقاد، ونفذ إلى أغوارها، بدأت خلقاً جديداً بالمعنى المستبطن، والعبرة المستفادة، والدلالة الكامنة . ويمثل هذه الإضافات تغدو

للتاريخ قيمة حضارية لأنها قيمة إنسانية .

والتفسير النفسي الذى أشرنا إليه يتمثل فى **تناوله الشخصية من جميع جوانبها النفسية**، وعرض هذا على ما تواضعنا عليه من صفات التفوق الإنسانى .

فيقابل العقاد شخصيته المختارة بالنموذج الإنسانى الذى رسمه الإنسان لنفسه ، ووجه القوة عند العقاد فى **قوة الصفة عند (البطل)** ، ذلك الوجه الذى يعطيها خصيصة أقوى من الامتياز التقليدى المقترن بها ، أى السمة التى تميز موصوفها بين من يتصف بها من الناس الممتازين (بالاتصاف) فعمر مثلاً كان قوياً لا كواحد من الأقوياء ولكنه كان قوياً من طراز متميز القوة إذ كان قوياً (لينتفع الناس بقوته ، ولم يكن قوياً ليطغى بقوته على الضعفاء)[٢] .

وقل مثل هذا فى عديد الصفات التى اتصف بها عمر حتى لتعد دراسته ، أو بالذات دراسة العقاد له (غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة . . . ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى)[٣]. وما بالقليل هذا ولا بالسهل المنال حتى ، حين ينتهى إلى مفتاح شخصية عمر (بطبيعة الجندى) لا يقف

---

(١) عبقرية عمر ص ٦٥ .

• اقرأ بحث (« توينبى » وفلسفة التاريخ) للأستاذ على أدهم ، مجلة الكتاب العربى ، العدد الحادى والعشرون الصادر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٦٦ .

(٢) عبقرية عمر ص ٥٦ .

ولا يتوقف بل يعطى هذه الصفة سمة خاصة (عمرية) تبدو معها بالتفوق ، بعيدة عن طبيعة الجندى هذه وهى منها جد قريب .

فأهم الخصائص التى تتجمع لطبيعة الجندى فى صفتها المثلى ، إنما تجمعت لها بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش ، ولكنها اتفقت لعمر بالفطرة القوية الموهوبة حتى لا تحتاج — من أصالتها فيه — إلى اكتسابها بطول المرانة وإدمان التعود كالجنود ، وهذا وجه التفوق الذى يرتفع بصاحبه وحده إلى أوج العبقرية ولو اشترك معه آخرون فى صفة أو صفات .

وهنا نلمح ظاهرة الاستقصاء عند العقاد ظاهرة التفصيص ، فحين يقول إن عمر مهوب لا يقف عند الهيبة فحسب ، ولكنه يمضى مع المعنى إلى أقصاه (فهى هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد ، إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعاً يهول من يراه ، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه)[١] .

وهو إذا وصل إلى حكم للشخص أو عليه يمضى يفصله أو يفصصه كأنه قاض يقرّع الحيثيات ثم يزيد هو فيجمع إلى الظاهر ، الباطن حتى ليبدو الأمر استقصاء أفقيًّا رأسيًّا معاً . فطبيعة الجندى فى عمر يلتقط لها الفتات الإنسانى فى أقواله وأعماله مما يؤيدها بل يقنع بها الآخرين اقتناعاً . فحرصه على النظام فى صفوف الصلاة ، وحلقات المسجد ، وتجمعات السوق ، ومجالس الحكم حرصاً يأخذ به نفسه قبل الآخرين

---

(١) عبقرية عمر ص ١٨ .

فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم (ذلك هو السمت العسكرى بالفطرة التى فطر عليها ، وليس هو السمت العسكرى بالأسوة والتعلم)(١).

ثم يرقى فى عملية التشريح من جزئيات الشخصية إلى التقسيم الأعم الأكمل كما يسميه فيجمع التصرفات والأقوال فى خطوط كبيرة تحدد معالم الشخصية وتؤكد خصائصها ، وقد تحدد هذه الخطوط من قوتها وعمقها بفعل الحفر على الورق الذى يمارسه العقاد فى اقتدار معالم عصره ، وخصائص حكم بعينه أو دولة بذاتها ؛ فلفتات عمر فى بيئته القريبة المحيطة انبسطت فغدت فعالها على مستوى الدولة إذ (دوّن الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاه الموكلون بالتجنيد فى العالم الحديث)(٢)

وهكذا تطرد نظرات العقاد الخاصة فى السيرة معمقة كأنها أحكام حروفها محفورة بالعدل فى عمر حاسة كحواس البدن عملها أن تسمو به على نفسه وكانت نفسه أسمى من عامة الأبطال .

ومن عباراته الجامعة التى تغنيك عن أسفار ولو حوت مئات الصفحات قوله فى إسلام عمر تعليقاً على واقعة أبي مريم السلولى قاتل أخيه (حسبك من إسلام يحمى الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد فى دينه ، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق)(٣).

(١) المرجع السابق ص ٦١ .
(٢) « « ص ٦٢ .
(٣) « « ص ٩٥

هذه قيمة دينية وقيمة إنسانية معاً . فليس الدين بالطقوس والعبادات ولو صحت وصدق فيها صاحبها ولكنه ارتفاع على الضعف الإنساني لا سيما الغريزي منه،بفعل الدين .

وليس بحق يستأهل التنويه من العقاد إن لم يشمل الأولياء والأعداء على سواء (فإن الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية ، وإنما يصبح جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه)(١)

وعمر كان بلا ريب أشد المسلمين فى إسلامه .

وعمر كان أشد المسلمين رعاية لعهد أهل الكتاب .

وهى قيمة إسلامية إبرازها أجدى على التاريخ الإسلامى من القصص الشائق والرواية المسهبة .

كان العقاد دقيقاً دقة عمر حين أوصى قاضيه أن يؤاسى بين الناس فى مجلسه ، ووجهه ، ولحظه ، وطرفه . وكم فى اللحظ من معان تدرك ولا تحس فتسبق الأحكام قبل صدورها بما أرادها عليه القضاة .

والعقاد معنى بالمعانى هى وحدها المقياس والتوقيت الصحيح وإن سبقت التاريخ الزمنى لما أو سبقها ، فعمر ثاني الخلفاء ولكنه فى ميزان العقاد مؤسس الدولة الإسلامية (إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الانحاء

---

(١) عبقرية عمر ص ٩٠ .

مؤسساً للدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الإسلام وأذانه ، وأعزها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة ، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها . . وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم)[١].

في البداوة البادية وضع عمر حجر الأساس لتاريخ وحضارة استطالا آماداً بعيدة عن البداية الصغيرة التي استهلا بها وإن كانت أصيلة بقدر ما رزقه عمر من سليقة التأسيس ، تلك السليقة التي هدته أن ينشئ حكومة وأن يجعل الأمر فيها شورى والقضاء تقاليد وأصولاً .

حضارة لم تنس نصيبها من الدنيا ولكنها واعية بالخلفية الروحية للوجود ، تلك الخلفية التي غابت عن الوعي المعاصر . . . ترى الله حياة الحياة أي السر الأسمى لها . . . وترى إبداع الكون في اتساقه الغريب . ومن ثم حققت هي الاتساق في أسلوبها .

وانطلاقاً من هذا الأفق المضيء حفظ المسلمون الحضارة القديمة حفظ الكريم الذي ينمي ويضيف . فحياة الروح يقينية بقدر ما هي قادرة على إغناء الوجود الفردي . . . إنها تمنح بهجة الرؤية .

هذه الرؤية تمنح الحرية والجمال والحب لأفكار الإنسان ولعلاقته بالآخرين .

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٦ .

إنها تهيئ الحلول بشروقها .
إنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة .
وترد الشارد إلى مكانه من حياة الإنسان .

وحين تكون الحادثة أو التصرف غريباً بعيد التصديق أو مظنة للنفي،لا يصر عليه بدفاع أو تسويغ ؛ لأنه ليس همه إنحال الشخصية خوارق الأعمال،ثقة بها وبغناها الذاتي عن إضافات لا تزيدها حين يكفيها المسلم لها به ، والثابت الصحيح مما صدر عنها بلا افتعال نسبة أو تفسير . فقصة سارية والجبل يكتفي منها العقاد بدلالة لها أشباه في تاريخ عمر تقوم وحدها دليلاً على المعنى المراد ، فهي في السيرة تعزز النظائر ثم لا تزيد . **إن البطولة في مفهوم العقاد إنسانية ممتازة** ، والبطل إنسان ممتاز عبقري موهوب حتى صفاء الرؤية أو النظر البعيد (تلك المزية الإنسانية النادرة) لا يقفها العقاد على التدين والعمق فيه ، بل صرح بعقلية رجل العلم بأن من الناس من مارسوا (التلباثي) وسجلوا مشاهداته (وهم ملحدون لا يؤمنون بدين) .

كل شيء عند العقاد مقنن وبحساب ، فهو لا يخلع على البطل الصفات الحسنى غمراً بلا ضابط،ولكنه يتقصى الأسباب والعوامل ويكشف عن مكنونها . فقوة العدل في عمر شيء طبيعي لأنها قوة اجتمعت له أسبابها حين تعددت هذه الأسباب من وراثة حيث مارست أسرته القضاء في الجاهلية واستشعرت رضا العدل وذاقت الظلم من أقربائها في الوقت نفسه حيث تكثروا عليها بالعدد ، ومن عقيدة دان بها تأمر بالعدل وتتشدد

فيه ، ومن تكوين ، ومن عبر الحوادث . وهكذا تعددت الأسباب وكان تعددها (هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها)(١) وأن تهتز فيه حتى ليسوى عمر فى عطاء بيت المال بين المولود اللقيط وبين المولود من زوجين ، وهى رحمة وعدل قد يحجبهما النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون ولا يعدلون .

وحين يجمع إلى عدل عمر ورحمته ، الغيرة على الحق والحرمات والذكاء وألمعية الذهن لا يقول إن عمر رضى الله عنه خلق (بذهن عالم بحاثة منقطع للكشف والتنقيب ، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر إلى مناحى الظنون والفروض ، ولا أنه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين . فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه)(٢) .

ومن اقتدار العقاد ابتداؤه بالصفة وانتهاؤه بعكسها مما قد يبدو تناقضاً وهو تكامل . فتصرفات وأقوال التواضع العمرى ليس تصاغراً يكشف الصغر ، (إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد)(٣) .

ويمضى العقاد فى مقابلاته المعمقة الشيقة فيصف ما كان عليه الحال بين النبى وعمر فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر .

---

(١) عبقرية عمر ص ٦١ .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٠ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٤٠ .

ولم يكن أحد مستقلاً برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر .

فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح .

(فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبى عليه السلام برأى يراه ، ولو كان ذلك الرأى من أخص الخصائص التى يقف عندها الاستقلال)[١]

الإنسان فى البطل :

وينتصر العقاد لروعة الإنسانية فى البطل ، فعمر العبقرى إنسان فيه فن وحب للجمال فى كتاب (عبقرية عمر) ، عمر المنوه بهموم الدولة ، عمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ، فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل ويكتب إلى الأمصار أن (علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر) (٢).

فى كتاب العقاد عمر إنسان عطوف حتى لينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره ، ويتمدح أمام عمر بأن له عشرة أولاد ما قبّل أحداً منهم ولا أدناه ، فيجيبه عمر ولمّا يزل معه الصبى الصغير الذى كان يجلسه فى حجره يلاطفه ويقبله : « وما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك . . إنما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول : إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

(١) عبقرية عمر ص ١٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٥ .

عمر في كتاب العقاد بطل يروع ويعرف روعة البطولة في غيره (فعمر كان يحب محمداً حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو فيا خلا ذلك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس)[١] .

ومن قوة الشخصية فيه قوة الكلمة الجامعة ومن هذا قوله لقاض يوصيه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلاً : (إني أسألك أن أفتي بعلم وأن أقضي بحلم وأسألك العدل في الغضب والرضا)[٢] .

ومفتاح منهجه في رسم الشخصية (كل صفة تتمة لجميع الصفات كما يقول : وكأنما اتفقت لتصبح كل صفة) أو (كل خليقة منها على أتم قدرتها في بلوغه كمالها وتحقيق غايتها) فلا العدل ينقصه جهل الطبيعة البشرية وضعفها الفطري،ولا الرحمة يغلبها الهوى فلاتدين بالمساواة، إنما هي ميزات تهديها الفطنة ويعصمها الإيمان برقابة ساهرة فلا تضل ولا تغوى .

ولعل هذا يفسر وصفه لعمر أو لصفاته بـ (التركيبة) ولم يقل : التركيب لأنها تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذي ينفع لغرض واحد مفهوم ، والذي ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط .

وهو في رسم العبقرية لا يتكثر بالأخبار والروايات ولو أجمعت على صفة تعزز رأيه أو تؤيد اتجاهه بل هو يفترض الشك في بعضها ويبيح

---

(١) المرجع نفسه ص ١٣٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧١ .

إسقاط الكثير منها ثقة منه بإنسانية الشخصية التي اختارها، وامتياز هذه الإنسانية فيها حتى ليبقى منها بعد الشك في الأخبار والإسقاط ما يدل على خصائصها في مجال العبقرية الخاصة بها. وسيبقى (ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبار)(١).

والعقاد لا يسخو بوصف العبقرية على كل ذكاء أياً كان نوعه أو باعثه فقد كان عمرو بن العاص ذكياً يعتمد على (لباقته وحيلته وحسن بصره بمواقع الأهواء وذرائع الإرضاء) ولكنه لم يزد عند العقاد عن أن يكون عظيماً من عظماء لا صاحب عبقرية إليه تضاف لأن مزاياه أو سجاياه (مجموعة من الصفات القوية ولكنها على قوتها بسيطة متناسبة يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب فى أمثال هذه النفس الفطرية. وأعمقها جداً هو أظهرها جداً، أو هو الذى تعمق حتى بلغ من عمقه أن ينضح على قسمات وجهه وحركات جسده) حتى الطموح الذى كان يجيش به إلى فتح البلاد وتقليب الدول وافتتاح المساعى إلى المجد والرئاسة، لم يرتفع به عند العقاد إلى أوج العبقرية ليسامت العباقرة ، لأنه رأى طموحه (قائماً على مطالب الواقع فى بواعثه ومراميه ، فكانت نظرته إلى الدنيا نظرة عملية معروفة الموارد والمصادر ، ولم تكن النظرة الخيالية التى يتسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من ذوى الطموح)(٢).

---

(١) عبقرية عمر ص ٥٥ .

(٢) عمرو ص ٢٧ .

المسألة فى عمرو ليست العبقرية بقدر ما هى عارضة قوية هى فى رأى العقاد أنبغ ملكاته حتى بلغ من نبوغها أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان إذا رأى رجلاً يتلجلج فى كلامه قال : آمنت بالله خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .

كما أن ملكات عمرو من ذكاء ماض وعزيمة ماضية ولسان ماض وهوى يمضى فى زمامه وينثنى بعد عرامه ، مما يحسب لصاحبها حساب فى كل زمان ويجد فيه ، ولكن هذا الحساب تصعد أسهمه فى أيام الفتن والقلاقل خاصة واختلاف الدعاوى والحقوق ، لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ويستطيع التأليب والتغليب فهو بهذا كله (عسير جداً أن يهمل شأنه بين الشيع والأحزاب ، وإن لم يكن إهماله فى غيبة الشيع والأحزاب جد عسير . .) .

أى أن عمرو (رجل حالة) لو صح هذا التعبير وليس رجل عصر بعينه أو دعوة بعينها أو مبدأ بذاته .

العقاد لا يسخو بوصف العبقرية من تقديسه لامتياز العبقرى وتفرده . فهو لا يشرك معه إلا من يشاكله . وهو لا يطلق صفة وتبدو فضفاضة على موصوفها . إن اللفظة عنده كالقفاز مفصل على اليد التى تملكه .

إن أوجب ما يوجب كتابة السير (أن تكشف جانب الخير فى أغوار النفس الإنسانية ، لا قصيدة مديح كما يقال ، بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور)

لم يسم العقاد سيرة عثمان،عبقرية لأنه لا يؤمن بالعبقرية لعثمان رضى الله

عنه ، حين يؤمن أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين .

(ومن أبى عليه ميزانه أن يحابى فى كلمة تستدعيها المجاراة لما سبقها من الكلمات ، لن ينظم قصائد المديح فى محراب التاريخ . فحسب النفس البشرية أملاً أنها غنية بالحق عن قصائد المديح فى هذا المحراب)[١].

* * *

وعبقريات العقاد فيها قيم بمثلها تقيم الكتابة والكتاب . فالعقاد فى العبقريات الإسلامية يثبت الإيمان عند الحائر لا بتحلية الوقائع التاريخية أو التزويق الأدبي،ولكن بمناقشة المسائل الشائكة التى يجهر بها العدو ويخافت الصديق .

فى عبقرية محمد ناقش دعوى انتشار الإسلام بالسيف.وإذ سلط على الاتهام عقله ومنطقه تهافت الباطل إذ الإسلام كما يقول العقاد حين حارب بجيوش إنما كان أصحابه يحاربون بوصفهم دولة لا بوصفهم مسلمين،وبوصفه نظاماً لا بوصفه ديناً (هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها)[٢].

ويعزز هذا ولا ينفيه فرض الجزية التى جعلها الإسلام ضريبة حرية العقيدة يتحلل بها من الالتزام من لا يريد اعتناقه ، وحتى هذه الجزية رفعها عمر عن أهل الكتاب للسن والحاجة .

و (الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته

---

(١) عثمان بن عفان ص ٢٠٠ .

(٢) عبقرية محمد ص ٥٨ .

جميع الحقوق ، وإن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك ، إلا أن يحال بينها وبين انتضائه ، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها)[١] .

كما ناقش بمثل هذه الفحولة مسألة زيجات النبي وخاصة زواجه من زينب بنت جحش .

أما فى عبقرية عمر فقد ناقش ثلاث مسائل شائكة فى سيرة عمر :

١ — نهيه عن استخدام بعض الذميين .

٢ — منعهم أن يتشبهوا فى الأزياء والمظاهر بالمسلمين .

٣ — إجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى إبان الفتوح .

فاحتكم إلى منطق العقل وإلى مقاييس السياسة ، والحكم فى الدولة القديمة أى بمعناها القديم والدولة الحديثة .

ومن الحقائق التى جلاها كتاب عمر ، حقيقة : موقف الإسلام من الفتوح هل فى الأمر شهوة السيطرة واللهج بالحكم ؟ أم هو تأمين الجزيرة مهد الإسلام من الدول العظمى التى تهددها وتتحيفها وهى تتاخمها ؟ وهى نقطة يغنى فيها حديث العلم والواقع التاريخى عن دفاع طويل عن اقتران الإسلام فى رأى البعض بالسيف .

كما ناقش العقاد فى (عبقرية عمر) حريق مكتبة الإسكندرية وما إلى هذا من أمهات المسائل .

كما ناقش من متعلقات السيرة :

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٠ .

عزل خالد

وحادثة الوأد فى الجاهلية . التى (ما نحسبها إلا إحدى جنايات الأغراب على من خلقوا وفى سيرتهم مثال للأغراب والإعجاب)(١).

ولكنى أحسبها صحيحة بقرينة الآيات (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم) .

* * *

فى عبقريات العقاد الإسلامية إضافات كبيرة :

فعمر من عطاءات الإسلام بما طور من حياته وشكل سيرته .

(كان جاهليًّا فأسلم . . . فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية فى التاريخ الإنسانى لما كان إسلام رجل طوراً من أطواره الكبار)(٢).

عمر إذن من عطاءات الإسلام ، كما أن مواضع البأس فى الإسلام على عصره من معطيات عمر . يعزز هذا سؤال النبى ربه أن يعز الإسلام بعمر الذى وضح أنه أحب الرجلين إلى الله .

وأسلم عمر وحسن إسلامه فكان النبى (يدخر للإسلام سورته كما يدخر له تسليمه وطاعته)(٣).

---

(١) عبقرية عمر ص ٢١٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٦ .

وأسلم عمر فكان إسلامه كما قال عبد الله بن مسعود (فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة)[١].

وكتاب عبقرية عمر كتاب (يقرأ . . فيه القارئ قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود . كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى ، وتلابس القوى فتنمى قوته وتجرى به في وجهته ، وكان يداً خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التيه فإذا هي صرح له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضمائر والأذهان)[٢].

وحسب الكتابة وكاتبها أن تصور حياة فرد فتؤرخ لدين بأسره من خلاله . . . دين هو أحوج ما يكون إلى تصوير قد يدحض عنه التهم ويرحض عنه الأذى ويجلو عن مراميه الشكوك .

ويقارن العقاد في كتابه « عبقرية الصديق » بين شخصيتي أبي بكر وعمر،أو بين النموذجين الكبيرين في التاريخ الإسلامي،فيجمع الموقف كله في تقديم وصف على موصوف يكفي في الإبانة عما بين عمر والفاروق ، من فروق .

فأبو بكر كما يقول العقاد كان يعجب بمحمد النبي وعمر كان يعجب بالنبي محمد أي أن (حب أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه إلى الإيمان بنبوته وتصديق وحيه .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٢ .

وأن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذى هداه إلى حبه والولاء له والحرص على سنته ، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن ، أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمداً حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .

هما قريبان جد قريبين .

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب)(١) .

ويمضى العقاد فى المقابلة حتى ما يتعلق منها بتكوين النبوة وتركيب المزاج فتكون فى جماعها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر ، وكلتاهما فعالة ، وكلتاهما ذات أثر فى الإسلام ، وفى العالم ، جليل .

(وإن العقيدة التى تتسع لهذين الرجلين ، ولهذين الخلقين ولهذين العقلين ، ثم يكون كلاهما إماماً فيها ، عظيماً فى اتباعها ، لهى عقيدة تتسع لكثير)(٢) لكأن العقاد موكل بتحريك السطح الراكد أو تحقيق المفاهيم الثابتة ونفض التلقائية عنها .

فإسلام أبي بكر مثلاً لا يقف به العقاد عند دلالة السماحة والطيبة التى قد تغرى الغرض بتحميلها معنى الضعف أو الاستسلام ، ولكنه يتعمقه كالعادة مستبطناً الأسباب البعيدة . . . والقريبة فإذا إسلامه

---

(١) عبقرية عمر ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) عبقرية الصديق ص ١٢٨ .

الموقف الذى يتخذه كل إنسان فى مثل مواضعاته وظروفه التى خلت من الموانع حين حفلت بالموجبات وعلى رأسها انطباعه ، سليم الفطرة ، على الإعجاب بالبطولة .

(دان أبو بكر إذن بالإسلام سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به وتليق بالدعوة المحمدية وليس تلقائية ساذجة . . فكان جديراً أن يكتب له من اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبى هو أول الاثنين . فكان ثاني اثنين فى الإسلام ، وثاني اثنين فى غار الهجرة ، وثاني اثنين فى الظلة التى آوى إليها النبي يوم بدر الذى لا يوم مثله ، وثاني اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبى فى شدة الإسلام ورخائه ، وفى سره وجهره ، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين)(١).

هكذا العقاد لا يسرد ولا يقص ولا يتسلى ولكنه يقف وراء التجارب والأعمال والأقوال والظاهرات والأحوال كعلامات طريق . .

* * *

فى (عبقرية الإمام) صوّر عصر على لا بالإنشاء والتحبير ، ولكن بتصرفات أصحابه على مسرحه وأقوالهم وسلوكهم وما وراء هذا من دلالات وعبر .

كانت الخلافة منذ تولاها عثمان مسرحية كبيرة شغلت أذهان النظارة والنقاد معاً وبلغت الدراما ذروتها بمقتل عثمان .

(١) عبقرية الصديق ص ١١٣ .

واعتلى على خشبة المسرح الأصغر وهو الذى استفاضت شهرته وأعماله على مسرح الحياة الكبير فى حربها وسلمها . . فى عملها وقضائها . . فخسرته الحياة ولم تكسبه الخلافة . .

لم يكن صاحب عصره . عاش فى مرحلة تحويلية يسرع فيها الحكم الإسلامى إلى الملك فى سمته وأسلوبه وغاياته ووسائله وكلها تتعارض مع فروسية الشجاعة ، وزهد الروحانية ، وتقوى العالم بالدين . . تتعارض مع الإمام .

(فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ كما عرف بالإقبال على الدنيا . . . ؟)[١] .

ومرة أخرى يقول الأستاذ العقاد :

(خرج « على » إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام) .

ولكن موته لم تكن هلكاً ، وخلافته لم تكن مقطوعة ، فقد عاش على موته الملوك ، وقامت باسمه الدول ، وهو الذى لم تقم له دولة فى حياته .

وبين البداية والنهاية أو المقدمة والنتيجة عرض العقاد حياة الإمام بألوان عبقريتها فى الشجاعة والرأى والعلم والروح فما فرغ من العرض إلا وفى كل ناحية من نواحى النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه . . ملتقى بالعاطفة المشبوبة أو بإحساس الرحمة والإكبار . ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى أجواء الذين ألحقوه

(١) عبقرية الإمام ص ٢٠٤ .

بأبطال الأساطير ، أو ملتق بالعقل يفصل بنفسه بين اختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين .

ستى للذوق الأدبي حيث يقع من نوابغ الكلم عند الإمام على مهوى للتذوق الحسن ، للجميل من التعبير .

إن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء ، وتمس قلبه حين يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ويتراءون من بعيد واحداً بعد واحد شيوخاً جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم ، أو فتياناً عوجلوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء وهم على حياض المنية جياع ظماء .

على بن أبي طالب فى كتاب العقاد ، الإمام العبقرى ، والشهيد أبو الشهداء . . .

* * *

ومنهج العقاد مطرد فى كل عبقرياته الإسلامية كأنه علامة مميزة .

هذا المنهج تستطيع أن تطبقه فى (عبقرية خالد) فقد رسم خلفية مادية وإنسانية للبطل تفسر مواقفه وتصرفاته وآراءه ومنازع السلوك عنده .

وهذه الخلفية لا تستثنى خالجة من مشاعر أو ظاهرة من الظاهرات فى بيئة البطل العامة أو الخاصة ولو كانت بعيدة فى رأى العين أو النظرة الأولى عن الموضوع . فجمال المخزوميات يحسب فى خلفية صورة القائد خالد بن الوليد (فقديماً كانت الفروسية والغزل . . والمرأة بيئة واحدة

تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال)[١] .

يعالج العقاد إسلام خالد فلا يستريح إلا أن يكون إسلامه (تسليم القلب نفض عنه الكفر ، وليس تسليم اليد ومت منها السلاح)[٢] .

ولا يهدأ العقاد عند الأقوال المقررة فيقيم عليها بناءه الأدبي أو التاريخي ولكنه يعرضها على الدرس والتعميق فإذا هو يبدأ من حيث انتهت .

والبدايات عند العقاد جذرية إلى أبعد إمدادات الجذور في تربة البطل أو منبته المادى والمعنوى على السواء .

فالقول بأن خالد (سيف من سيوف الله) لا يتعلق به العقاد ليعفى نفسه من متناقضات السيرة فيتجاوز بالقارئ أو بالحقيقة العلمية (ميدان حنين) أو صنيع خالد في سرية بنى جذيمة .

لا . . بل لعل العقاد يرى في مثل هذه المزالق مجاله الذى يصول فيه بطاقة الجدل عنده وقدرة الإقناع فيه .

يقول العقاد : (كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل من رءوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه في ظلال المحنة والبلاء) .

ويعنى العقاد بهذا القول عين النبي الملهمة فقد سمى خالداً سيف الله (قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام

---

(١) عبقرية خالد ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٢ .

جزيرة العرب ، ويضم إليها العراق والشام . . وهى الأعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام)[١] .

ولا يتردد العقاد فى تقرير الخطأ إذا قام عليه من الأحداث والروايات ووقائع الحال ، الدليل . ومن هنا أثبت على خالد الخطأ فى وقعة البطاح (لأنها لم تضف إلى فخاره العسكرى كثيراً ولا قليلاً وأهدفته لملام أحمد ما يحمد منه أن له عذراً فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون)[٢] .

وقد أثبته عليه عملاً بمبدأ تقرير الخطأ كالتنويه بالصواب (لأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ)[٣] .

ناقش العقاد عزل خالد[٤] فلم يقدم اقتناع خالد عندما أفاء إلى الهدوء بهذا العمل،جنوحاً إلى الأسهل بل أجله إلى آخر المناقشة فانتهى به حيث بدأت النفس القارئة فى الاقتناع . وهنا لم يترك لها فرصة أطول للتفكير أو الترجيح بل انتهى بها إلى قرار معروف إذ توفى خالد (وهو يجعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر بن الخطاب)[٥] .

العقاد نفسه إنسان رقيق الإحساس فى الكتابة عن العباقرة والعظماء . .

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٨ .
(٢) المرجع نفسه ص ٩٦ .
(٣) المرجع نفسه ص ٩٦ .
(٤) عبقرية خالد ص ١٤٥ - ١٥٣ .
(٥) المرجع نفسه ص ١٥٤ .

فمفخرة خالد بن الوليد أعنى موقعة (اليرموك) قمة نصره الحربي فى تاريخه كله لا تلهى العقاد الإنسان الرقيق عن موضع الدلالة فى قصة (قلنسوة) خالد القائد الظافر ، الذى يصر على البحث عن القلنسوة فى موقف الهول وما هى بالنفاسة التى توجب الحرص عليها أو تؤلم عند افتقادها . ولكن إصرار خالد على العثور عليها إنما كان لتيمنه بها لما حملت من شعر ناصية الرسول .

ويؤمن العقاد على رأى خالد ، أقرب ما يكون إلى القلب الإنساني :

(ما فى ذلك من عجب فليس أحوج إلى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء)[١] .

لا يستطيع إدراك فعل هذه الكلمة من العقاد إلا من يقرأ كتابه عبقرية خالد الذى يقيد فيه العقاد أنفاس القارئ ليسمعه يمنطق ويجادل ويفلسف الأشياء الصغيرة حتى تغدو لها قيمة ويصاول الحجة بالحجة ويستقصى حتى يقفل الدائرة تماماً حتى إذا لهث القارئ من التصعيد إليه وحسب أن مهمته صعبة مع الكاتب العالم المحقق وظن أنه عنه بعيد . . بعيد إذا ، به ، منه قريب قريب . . إنسان مثله يحنو على ضعف الإنسان أمام القوة الكبيرة فيتوسل إليها بالتبرك والتيامن . . ونافلة من صلاة .

إن عبقريات العقاد الإسلامية أجدى على الإسلام من حيث هو دين ونظام وعلى الأدب العربي من حيث هو تصوير وتعبير ، وعلى الأدب الإنساني من ناحية إعلائها للشمائل الإنسانية من خير وحرية واستقلال

(١) المرجع نفسه ص ١٦٢ .

رأى وشعور بالتبعة وإيثار للعدل . . أجدى على الدين والدنيا فى إجلائها العقيدة واحترامها العقل الإنسانى من كتب كثيرة ليس فيها من الجهد والعلم والقيم . . وإن أغنت فى ناحية أو أخرى – معطيات العقاد التى أسداها مخلصاً لله ، وللإنسان عن إيمان . .

والعقاد يعزو تعلقه بالموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص ، فيا يعزوه ، إلى وراثاته . (ولدت لأبوين من أهل السنة أبي على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبي حنيفة.وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء الصلاة « صلاة الصبح » حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهباً إلى المسجد القريب أو عائداً منه إلى داره .

وفتحت أذني كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله . فمولد النبي حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبي وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء إخوتي أجمعين محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب إلى عم النبي لا إلى الأمير الأسبق : عباس حلمى كما كان يتوهم بعض معارف لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب « حلمى » جرياً على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة .

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور

السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية فاستفدت منه كثيراً فى دراسة تاريخ الإسلام)[١] .

هل المسألة عاطفة فحسب ؟ عاطفة توجد عند الكاتبين والأميين ؟ لقد استدرك العقاد ، العقل المفكر ، بعد قليل ، فقال وكأنه لمح هذا السؤال خاطراً يسنح بغير حروف .

(قاربت سير العظماء الإسلاميين و « النبويين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها ، فعظماء الإسلام عندى أعلام إنسانية ، باذخة تخولها مكان العظمة ، مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ،وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام)[٢] .

حتى فى تأريخه لفاطمة لم يكتبه لأنها بنت محمد أو زوج على ، أو لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هى فاطمة ولأنها هى (مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير)[٣] .

وعلى ما يبدو من صرامة منطق العقاد خاصة حين يحلل أو يسوق الحجج ، فإنه فى سيرة الحسين يكتب بقلم مغرورق فإذا السطور عن

---

(١) كتاب فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩ .

(٣) المرجع نفسه ص ٩ .

سبط الرسول ، منداة بالدموع .

هل أستعير عبارته عن الفاروق بن الخطاب : (أكثف ما تكون الدروع ، أرق ما يكون الموضع الذى يليها) .

والعقاد الذى يراه الناس صارماً جباراً ، يرق ويرق فى الكتابة عن الحسين عن أريحية وحب وعطف على موقفه ونفوراً من ظالميه وقاتليه حتى ليقول فيهم وفيه : (ذهب يزيد إلى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين .

وانهزم الحسين فى يوم كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ، ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين،وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس فى حلة من النور تخشع لها الأبصار .

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الإنسان غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمى وقديم ولا حديث .

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة وحسبة،إنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد بن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين) .

والحسين فى كتاب العقاد ، وكتابته ، سيرة عطرة صافية صفاء النور تلحق بعالم المثال الذى يتطلع إليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن .

وليست هذه ، على قيمتها ، كل ما فعله العقاد ولكنه كشأنه ناقش

قضيتها مناقشة ممعقة خدَّم لها فحولة منطقه وقدرته فى الجدل والقياس . وكأنه كان يكتب ليقنع (بالحسين) المخالفين والأولياء على سواء .

ولا يخدم قضية مهما تراءت قوتها ، قدر مواجهة آراء الطرف الآخر ومناقشتها ودراستها حتى لا يحيك بالنفس شك فيها قد تخفيه ولا تبديه ، وقد تداريه ، ولكنها فى الحالين لا تصل إلى مرتبة الصدق الخالص غير مشوب ، وهى مرتبة اليقين .

* * *

وبعد فالعقاد بمجموعة كتاباته الإسلامية الجامعة دعوة واضحة إلى الاعتزاز بالتراث فى صوره المشرقة . وإن كان من علماء التاريخ من يرى إبراز الجانب المشرق فى عبقريات العقاد الإسلامية نهجاً لطريقة الكماليين من علماء الأخلاق ، غدا منهجاً . (ومن هنا فعبقريات العقاد الإسلامية ليست سيراً بالمعنى التاريخى المألوف ، وإنما هى صور أخلاقية قلما يحتفل فيها بالأحداث والوقائع) . . ثم التطرق من هذا إلى نقد (التركيز على جانب واحد من جوانب التاريخ خدمة لأهداف مباشرة فهو سلاح ذو حدين ، إذ أنه يقدم للقارئ ، كبيراً وصغيراً ، أنماطاً غير إنسانية لا تتحرك إلا فى عالم آخر غير عالمنا هذا)(١) .

على أن هذا الرأى كان يمكن أن يكون أكثر مطابقة لو أن العقاد

---

(١) من مقال (عباس العقاد مؤرخاً) للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى . الهلال العدد الرابع – السنة الخامسة والسبعون عدد خاص (العقاد) .

كتب ترجمة فحسب ثم اجتزأ بالجانب المشرق دون الجانب الآخر ، ولكن العقاد منذ العنوان صرح بأنه يقصد (العبقرية) .

على أن العقاد لم يقتصر على الأنماط العزيزة أو التي لا تتحرك إلا فى عالم آخر غير عالمنا هذا ، فقد كتب العقاد عن إنسان (مجهول القدر منحوس الحق يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم الأغراض والأهواء) . ذلكم هو الشاعر المغبون : **ابن الرومى** .

* * *

الفصل الرابع

العقاد والمرأة

والآن نفرد فصلاً للحديث عن المرأة فى أدب العقاد كما أفرد لها هو فصلاً فى كتابه عن جيتى . وكتاب يتحدث عن الجمال والحرية والشخصية الإنسانية لا يجوز أن يغفل المرأة فهذه العناصر الثلاثة محور حياتها .

وفى حياة العقاد نماذج للمرأة كتلك التى فى حياة جيتى ، فالعقاد يكاد أن يكون مثل صاحبه الذى أحب طائفة شتى : منهن الفتاة والنصف ، ومنهن الشقراء والسمراء ، ومنهن التى أحبها للرشاقة والدماثة ، والتى أحبها للحب والمتعة ، والتى أحبها للذكاء والحصافة ، والتى أحبها للعطف الأنثوى الذى يحتاج إليه الرجل الشاعر فى حياته النفسية .

ولكن أحب إنسان إلى قلبه من النساء أو الرجال كانت أمه التى تشى كتاباته عنها بتفضيله لها على أبيه . . .

وحين يتكلم الأستاذ العقاد عن العبقرية والشخصية الإنسانية فإنما يقصر حديثه ، إذا استثنينا عقيلات بيت النبوة كالسيدة النجيبة المنجبة فاطمة الزهراء ، والصديقة بنت الصديق ، — من واقع الشخصيات التى خصها بإعجاب — على الرجل أقولها أنا السيدة بأسف عاتب . بل إن الأمر تجاوز هذا إلى التصريح بتفضيله الرجل على المرأة فى غير مواربة بل فى قسوة

أحياناً كثيرة . وهنا ألمح كتابه (المرأة فى القرآن الكريم) فهو يرى فى القوامة الواردة فى القرآن الكريم أنها مستحقة بتفضيل الفطرة وأن قوة الجسم فى الرجل وراءه سبب من فضل (فإن الجنس لا يمتاز فى جملته بقوة الجسد ، دون أن يرجع ذلك إلى فضل فى التكوين يوجب الامتياز والرجحان) .

وهل قوى الحيوان كالأسد والنمر مثلاً أفضل فى التكوين من الإنسان لعامل قوة الجسم ؟

المرأة وظيفتها الأولى فى الحياة لا تحتاج إلى ضلاعة الجسد ، بل تحتاج إلى تكوينها الخاص بها المرسوم بحيث ينهض بالأمومة .

والمرأة – من حيث الشكل – تهوى الجمال لا القوة أى أن تكون جميلة فى استدارة لا مفتولة الساعدين ، بل إن المرأة (القوية الجسد) والبنيان تعاب فى عرف النساء وتوصف بأنها : « رجل » .

وحين افترض الأستاذ العقاد (النقص فى التكوين) بنى عليه الكثير فعنده من النادر جداً أن يوجد بين النساء من تبدع الجمال فى فن من الفنون ، سواء كان الشعر أو التصوير أو الموسيقى أو التمثيل .

ويعارض الرأى الذى يعزو تخلف المرأة فى الفنون الجميلة إلى الحجر عليها فى صور الجهالة الأولى فهو يرى أن الحجر (كان شاملاً للضعفاء من الرجال والنساء على السواء ومع هذا نبغ الشعراء والفنانون من طبقة العبيد والسوقة) .

وتهدر حجج العقاد :

(المرأة لم يحجر عليها فى الغناء والعزف ومع هذا لم يتجاوز حظها من

الغناء طبقة الأداء الحسن إلى طبقة الخلق والإبداع) .

وإن كان الأستاذ العقاد قد نسي قوله في غمرة الفرح بشفاء أم كلثوم الذى أوحى إليه قصيدة رقيقة منها :

أيها الكوكبُ الـذى ... أسْعَدَ الأرضَ باللِّقـاء
ردِّدِى الطرفَ فى الفضا ... ء ، وما أرحَبَ الفَضاء
واسأليهِ سـؤالَ مَنْ ... يُلحِنِ الطيرَ فى الهـواء
هل ترَى فيهِ مثلُ صو ... تك فى الحُسْنِ والنَّقـاء
فى قديمٍ من الزمان أو ... فى وفى حاضرٍ سواء
لا أحاشى من الرجا ... لِ قبيلاً ولا النِّساء

. . . .

لا تُجيبِى . أنا المجيـ ... ـب ولم أغْلُ فى الثَّنـاء
أنتَ كالشَّمس لا تُعدُّ ... د فى هذه الســماء

ديوان بعد الأعاصير

ومن حججه المماثلة ، الطبخ والتطريز والتجميل من الصناعات التى تفوق الرجل فيها وكان الظن أن تكون الصدارة فيها للمرأة .

وأرى أن مرجع ذلك إن الرجل يمر بمرحلة شبه دراسية من التمرين فى المطبخ حتى يصل إلى « طباخ » لأنه يستعد للاحتراف فى البيوت والفنادق . أما المرأة فلا تفكر عادة فى الاحتراف بهذه الصورة . إن المقصود بالطبخ عندها أسرتها الخاصة أو (أسرة) غريبة إذا دعاها داعى الحاجة إلى العمل بالمنازل .

على أن معاهد التدبير الآن بمن فيها قادرة على ابتداع الأصناف والافتنان فيها وتنويعها وتحسينها . أما من جهة الآداب فقد نجحت المرأة فى الآداب على كافة المستويات . فالمسألة ليس فيها استحالة حادة،ومثل هذا يقال عن موضوع التطريز والتجميل .

يقول الأستاذ العقاد :

(وتنوح المرأة على موتاها ، وتتخذ النواح على الموتى صناعة لها فى غير مآتمها ، ولم تؤثر عن النساء قط فى لغة من اللغات مرثاة تضارع المراثى التى نظمها الرجال) .

وأقول : هنا أيضاً يتعلق الأمر بقدرة النظم .وهذه يترتب عليها الحفظ والذيوع .ولكن بين (عديد)٠النساء ما يفجّر الصخر،وقد دخل فعلاً فى عداد الفنون القولية أو الشعبية على الأقل . على أن أشهر مراثى الأدب العربى ما أثر عن الخنساء .

ومثل هذا قاله عن الرقص وهنا أيضاً لا يمكن إطلاق الأمر قاعدة . إن المرأة التى استطاعت أن تدرس الطب والهندسة وتنجح فيها تستطيع أن تدرس الرقص وغيره مما أثير وتبلغ فى نجاحها مبلغ الرجل ، وتستطيع أن تفوقهم كما فاقتهم أحياناً كثيرة فى ألوان الدراسات الأخرى . والأستاذ العقاد نفسه يقول بهذا ولكن على سبيل الاستثناء الذى يؤيد القاعدة ولا ينفيها ! لماذا ؟

إن أشهر نجوم فن الباليه راقصات مثل بافلوفا و « أولانوفا » و « ايزادورا » .

لأن فضائل الأجناس فى رأيه (لا تقاس بالنصيب المشترك بل

تقاس بالغاية التى لا تدرك ولا تؤخذ بالاستثناء الذى يأتى من حين إلى حين ، بل بالقاعدة التى تعم وتشيع بين جملة الآحاد . وقد يوجد بين الصبيان من هو أقدر على أعمال الرجال ، بل قد توجد فى أثناء الليل ساعة أضوأ من بعض ساعات النهار ، وإنما تجرى الموازنة على الغايات القصوى ، وعلى الأغلب الأعم فى جميع الأحوال ، وما عدا ذلك فهو الاستثناء الذى لا بد منه فى كل تعميم) . ص ١٨

لماذا إذن لم يأخذ بهذه القاعدة عند الحديث عن نبوغ العبيد من الرجال ؟ قاعدة الأغلب الأعم ؟

حتى النكتة يستكثر الأستاذ العقاد على المرأة النفاذ إليها ! (إنها قليلة الفطنة للنكتة ، إلا فى الندرة التى تحسب من الفلتات العارضة) .

حتى هذا ! !

والنظافة ليست من خصائص الأنوثة إلا لاتصالها بالزينة ، وحب الحظوة فى أعين الجنس الآخر . (ولو لم تكن النظافة « قيمة خلقية » مفروضة عليها بإشراف الرجل على حياتها العامة وحياتها الخاصة ، لكان استقلالها بنفسها وشيكاً أن يضعها موضع الإهمال والاستثقال) .

وردى أن بين الأرامل والجدات مولعات بالنظافة دائبات عليها ولا رجال هنالك يشرفون على حياتهن العامة أو الخاصة .

ترى لماذا ربط الأستاذ العقاد المرأة فى كل شىء ، حتى فيما يتعلق بالطبيعة الإنسانية المشتركة بين الرجال والنساء ، بالرجل كأنها كلبه الأمين ؟

حتى صفة (الحياء) عندها أو الاحتجاز الجنسى كما يسميه ،

بعده (من الغريزة التى يتساوى فيها إناث الحيوان ، وليس من الإرادة التى يتميز بها نوع الإنسان بجنسيه) .

وأقول الاحتجاز الجنسى لا يتساوى فيه الإناث سواء من الإنسان أو حتى الحيوان والدليل من القرآن نفسه . وهنا يكون الاحتجاز الجنسى عند من تتمسك به إرادة ، وقيمة أخلاقية . وهو حياء وليس مجرد اضطرار بدعوى أنه (الحكم القاهر الذى فرضته عليه وظائف الأعضاء) .

حياء تفاضل فيه المرأة بين ما يحسن وما لا يحسن وبين ما يليق وما لا يليق وما هو أعلى وما هو أدنى وهو (ضبط نفس وقدرة على الامتناع) .

وهو امتياز يحسب لصاحبه كما أقر الأستاذ العقاد نفسه بعد قليل فى حديثه عن الحواجز الجنسية ومنه (الرجل الذى يقدر عليها هو رجل ممتاز فى خلقته الطبيعية كالمرأة التى تقدر عليها . وكلاهما زوج أصلح من غيره للبقاء وإنجاب الأبناء) .

وليس بصحيح أن المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسى (لأن الطبيعة جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور ، فهى تنتظر حتى يسبقهم إليها من يستحقها فتلبيه تلبية يتساوى فيها الإكراه والاختيار) .

إن تلبية المرأة حين تلبى يسبقها اختيار منها وإرادة ورغبة تفضيل وليست التلبية البلهاء أو العشواء .

وعنده أن المرأة متناقضة، ومع تسليمه بأن (الشخصية، الإنسانية) فى حالى الذكورة والأنوثة عرضة لكثير من التناقض المحيرة للعقول : عقول الرجال وعقول النساء ولكنه يرى التناقض فى المرأة أغرب وأكثر !

وهو يعرف مقدماً رد المرأة فيجاهر به قبلها ولا يبالى فيورد أمثلة المرأة فى هذا الباب من نحو تشبيهها الرجل بالبحر المالح وشهر أمشير . . . إلخ ، ويعلق على هذا فى طرافة تبدد غضبنا نحن النساء أو الكاتبات على الأقل من قبيل الفن للفن : يعلق الأستاذ العقاد على الأمثلة النسائية :

(وكم لهن من أمثال هذه الأمثال مما لا يحفل به الرجال)(١) .

أكلت حواء من الشجرة وزينت لآدم أن يأكل مثلها .

وقد لخص الأستاذ العقاد قصة الأنثى فى (هذه الشجرة) التى غدت عنواناً لأحد كتبه بعد أن رآها عنوان ما فى المرأة من خضوع يؤدى إلى لذة العصيان ، ومن دلال يؤدى إلى لذة الممانعة ، ومن سوء ظن ، وعناد ضعف ، واستطلاع جهل ، ومن عجز عن المغالبة ، وعجز عن الغلبة بغير وسيلة التشهية والتعرض والإغراء)(٢) .

حتى حين يظن به أنه يقر لها بتفضيل فإنما هو مدح معكوف أو ذم ملفوف ، فالحمل تضحيتها الكبرى (قد أتاح للمرأة مزية فطرية لا تتاح لزوجها على وجه اليقين ، وهى ضمان نسلها بغير دخل ولا ارتياب . فكل من ولدت المرأة فهو وليدها الذى يستحق عطفها وحنانها ، وليس ذلك شأن الآباء فيما ينسب إليهم من الأبناء)(٣) .

وتبلغ القسوة منتهاها حين يقول (إن النساء يوكلن إلى الفطرة فى

---

(١) هذه الشجرة ص ٩٧ .

(٢) « « ص ١٥ .

(٣) (المرأة فى القرآن الكريم) ص ٤٤ .

أخلاق الغرائز والعادات ولكن لا يصح أن يتركن فى الأخلاق الأخرى أخلاق الإرادة والضمير – بغير إيحاء شديد ، بل إكراه يتجاوز حدود الإيحاء) .

وتضحيات الأمومة تتساوى فيها مع بعض إناث الحيوان وليست فضلا لها أو فضيلة !!

يخيل إلى أن الأستاذ العقاد كتب هذا الكتاب فى فترة عداء كبير لامرأة من النساء .

إن من النساء من هن مثال الوفاء للإنسان والمكان والقيم والأوطان عن إرادة وضمير وبغير إيحاء شديد أو ضعيف وبغير إكراه يتجاوز حدود الإيحاء . والدليل إجلال المرأة لمكانته الفكرية والأدبية حتى بعد صدور هذا الكتاب ، والعدل فى الغضب ، والانتصاف عند افتقاد الإنصاف ذروة من ذرى النفس والضمير . والكتاب لا يخلو مع هذا من بارقة إنصاف للمرأة فى بعض القضايا كقضية الشهادة التى يحملها الناس معنى تفضيل الرجل على المرأة وهى ليست كذلك . . فالمسألة ترجع إلى طبيعة المرأة العاطفية . إن الدين الإسلامى إذ يشترط شهادة امرأتين حين يكتفى بشهادة رجل واحد فإنما كان ذلك كما يقول الأستاذ العقاد لأن (النساء لا يملكن من عواطفهن ما يملكه الرجال) . على أن القرآن الكريم طالب من مقتضيات الحيطة لحماية البرىء وإنصاف المظلوم أن يزاد عدد الشهود من الرجال .

وهنا يتسمح الأستاذ العقاد وتستحيل غضبته على المرأة إلى رفق هادئ فيقول توضيحاً لهذا الموقف من مواقف الدين : (ولقد يوجد من

النساء من تقوم شهادة إحداهن بشهادة ألف رجل ولقد يوجد من الرجال ألوف لا تقبل منهم شهادة ، ومع هذا من مصلحة المجتمع قياساً على الأعم الأغلب أن يحتاط فى الشهادة على الوجه الذى رسمه الله) .

وفى مسألة الميراث يرى مسوغ : (زيادة حصة الأخ لا فى أفضلية له ولكن فى مسئوليته عن نفقة أخته ، وأن الابن يعول من لا عائل لها من أهله ، وأن رب البيت عامة هو الزوج أو الأب أو الرشيد من الأبناء والإخوة ومن إليهم ، وتقرير وجوب السعى على الرجل أولى وأصلح من تقريره على المرأة التى يظلمها من يساويها به فى واجبات السعى على المعاش ، مع نهوضها بواجب الأمومة والحضانة وتدبير المعيشة المنزلية) .

لقد عانت المرأة من الجدل السياسى الذى عاشه العقاد قبل كتابه عن المرأة كما عانت من مزاياه : **الإرادة الحديدية والفحولة** .

ومع كل هذا فسواء أهاجم الأستاذ العقاد المرأة أم هادنها فقد **دان لها وقبَّل منها الوجه بل اليدين وجاش بالدمع وجاش بالشعور** وما ارتوى على كثرة العب وطول الرشيف . إن شعره فى هذه الناحية ينكر نثره . . . شعره الرقيق فى الغزل ، ينسخ عرام منطقه فى الجدل .

ومن شعره فى (ليلة الوداع) :

وألثُمُه كما أبَرِّدَ غُلَّتى ... وهيهاتَ لا تَلْقَى مع النار راويا
فقبَّلتُ كَفَّيْه وقبلْتُ ثَغْرَه ... وَقبَّلتُ خديْه وما زلتُ صاديا
كأنا نذودُ البَيْنَ بالقُرب بيننا ... فنشتدُّ من خوفِ الفراق تدانيا
كأن فؤادى طائرٌ عاد إلفَه ... إليه فأمسَى آخرَ الليلِ شاديا

إذا ما تضاممْنا ليَسْكُنَ خفقه — تنزّى فيزداد الخُفوقُ تواليا
أوشّج فى كلتا يديْه رواجبى — وشيجاً يظَلُّ الدهرَ أخضرَ ناميا
وتلمسُ كفِّى شَعْرَه فكأننى — أعارِضُ سَلسالا من الماء صافيا
وأشكُوه ما يجنِى ، فينفِرُ غاضباً — وأعطِفُه نحْوِى فيعطفُ راضيا
ولما تَقَضّى الليل إلا أقلّـــه — وحان التنائى جِئتُ بالدّمع باكيا (١)

داعياً الفرد الممتاز يتخذ نفسه ظاهراً أو باطناً ، أراد أم لم يرد ، مقياساً للآخرين . وسيراً مع هذا المنطق ، فإن العقاد ما دام خلق رجلاً ، فالرجل إذن أحسن من المرأة بعامة . . . والعقاد بالذات أحسن ، بصفة خاصة من (سارة) التى عذبته . . وكل سارة . . أليس رقيقاً ناعماً ؟ يتحنن ويترضى ويقبل الخدين بل اليدين ؟ ماذا تريد المرأة من مظاهر الغلبة الآسرة أكثر من هذا ؟

ويزيد هذا قيمة أنه لا يفعله للتشهى أو التلهى ، بل إنه يحب المرأة لذاتها . . لا للجمال .

نَبِّئينى ، فلَسْتُ أعلَم مـــــاذا — منك قلبى بحُسْنِه مشـــغوفُ
كلُّ حسْنٍ أراكِ أكبرَ منـــــه — إن معنـــاكِ تالــدٌ وطـــريف
لستُ أهـــواكِ للجمال وإن كا — نَ ذكاءً يُذْكى النُّهىَ ويشـــوفُ
لستُ أهـــواكِ للدلالِ وإن كا — نَ ظريفـاً يصبُو إليه الظـريفُ
لستُ أهـــواكِ للخصالِ وإن رَ — قَّ علينا منهنَّ ظــلٌّ وريـفُ
لست أهـــواكِ للرشــاقة والـرِّ — قة والأنس وهو شــتى صنـــوف

---

(١) يقظة الصباح .

أنا أهواك (أنت) أنت فلا شى‌ء سوى (أنت) بالفؤاد يُطيفُ
إن حبًّا يا قلب ليس بنسيك جمالَ الجميلِ حبٌّ ضعيفُ[1]

بل إنه نزه المرأة عن شهوة الجسد وثار عليها حين تردت :

تُريدين أن أرضَى بك اليوم للهوَى وأرتادُ فيكِ اللَّهوَ بعدَ التَّعبُّدِ
وألقاك جسماً مُستباحاً وطالما لقيتُكِ جَمَّ الخوفِ جَمَّ التردّدِ
رويدكِ إنِّي لا أراكِ مليئةً بلذةِ جُثمانٍ ولا طيبِ مَشهَدِ
جمالُكِ سُم فى الضُّلوعِ وعَثرةٌ تردُّ مهاد الصفوِ غيرَ مُمَهَّدِ
إذا لم يكنْ بُدٌّ من الحانِ والطِّلَى ففى غير بيتٍ كان بالأمس مسجدِى[2]

طراز آخر من الرجال . . فيه نصاعة القمم . . .

مرة أخرى أعود إلى رقيق غزله بعد التجنى تجنى صاحب (كأس على ذكرى) . . . تجنى القائل :

صوتُ النذيرِ الذى أبقاكِ خائفةً على ذِراعى قُولِى كيف أخشاه ؟
أو البَشيرُ الذى يدعوكِ ثانيةً إلى الطريقِ لعَمْرِى كيف أرضاه
الحبُّ والحربُ وا ويلا قد اجتمعا فى القَلبِ فانقلبَتْ أحوالُ دنياه !

وله فى الصدار المشهور :

هنا مكانُ صِدارِكْ هنا هنا فى جِوارِكْ
والقلبُ فيه أسيرٌ مطوَّقٌ بحصارِكْ

* * *

(١) أشجان الليل ص ٣١٦ .
(٢) أشجان الليل ص ٣٣٢ .

نسجته بيديك على هُدَى ناظريك
إذا احتوانى فـإنى ما زلتُ فى أصبعيك[١]

العملاق يتطامن ولكن للحبيب ! فحسب . . .

هو ينتقص المرأة أو على الأقل يراها دون الرجل ولكنه يضعف أمامها حتى ليصرح مرة أنه بين أصبعيها وتارة لدى قدميها !! هذه أبياته :

أبيات العملاق الذى ما دان حتى للطغاة يلقى سلاحه ويقول :

أريد التى ألقى سلاحى وجنتى إليها وألقاها بِفَنِ البأس أعزلا
وأطرح أعباء الجهادِ وهمّه لدى قدميها مُغمَضَ العينِ مُرسِلا
وأنتِ إذا أقبلتِ أقبلتِ جحفلاً وجردت أسيافاً وشيّدت معقلا
فإن تهزميني فاهزمى عن بصيرة مريداً لأسباب الهزيمة مقبلا[٢]

ويقول :

أهجوكِ يا أكرمَ من أمدَح ومن بإطرائى لها أصدَحُ
أهجوكِ والتسبيحُ أحرَى بِما أجِدُّ فيه اليومَ أو أمزحُ
قاسيةٌ أنتِ ولكنني أقبّل الكفَّ التى تجرَحُ
وأعظَمُ القسوة تِلك التى يَلهو بها المجْروحُ ، بل يَفْرحُ[٣]

وفى (أعاصير مغرب) قصيدة بعنوان (هذا هو الحب) .

بلا نواح أو جراح أو سهاد أو دموع أو خضوع ذليل ، عرف العقاد الحب : شفافية ، وفهم ، وغفران ، وإعذار ، وبهر ، وإحجام ، وإقدام ،

---

(١) أعاصير مغرب ص ٣٥ .
(٢) أشجان الليل ص ٢٩٩ .
(٣) ص ٣٠٢ .

وسكر بغير خمر ، وخمر بلا دنان ، وعمران وعهدان ، وارتفاع فوق الذرى ، وهبوط تحت الثرى ، وإيثار للذة ، وآلام ترى آثراً . . . جنة ونار وري وسعار ، وفيض من الوحي والشعر ، وغيض من النظم والقصيد :

مسألةٌ أسهلُها صعبُ
لا الناسُ تدريها ولا الكتبُ
حَسبُكَ منها ، لو شفَتْ حسبُ
إشارةٌ دقَّ لها القلبُ

المرأة فى شعر العقاد هى الدنيا :

ماذا من الدنيا — لعَمْرى ، أريدْ ... أنتِ هى الدُّنيا ، فهل من مَزيدْ ؟
فيكِ لنا نورٌ ونارٌ معاً ... وأنجمٌ زُهْرٌ وأفْقٌ بعيدْ
وفيكِ روضٌ مسفِرٌ عاطرٌ ... وجوهرٌ حرٌ ودُرٌ نضيدْ
ونَشوةُ الخمرِ إذا قوبلَتْ ... بنَشوةٍ منكِ متاعٌ زَهيدْ
والفن إن لم تكُ نجواه منْ ... نجواكِ لغوٌ باطل لا يُفيدْ
وكل ما فى الكونِ منَ رَوْعةٍ ... لها نظيرٌ فيكِ حيٌ جديدْ

أشجان الليل

وكأنه بعد الكفين والقدمين تذكر شموخه وصفات العلم فيه والذكاء، أو لعله تذكر كتابه (هذه الشجرة)،أو كتابه الأشد قسوة (المرأة فى القرآن الكريم)، فبرر جنوح قلبه بقوله إن ثروته من الوفرة بحيث لا يضيرها تبديد درهمين ! !

أكذبينى مرةً أو ... فأكذبينى مرتين

ألف ألف من أعاجيـ　　ـبك فى غِشٍّ ومَيْن
لن تبيدَ الفارقَ الخا　　لِدَ يا قُرَّةَ عيني
والسماواتِ التى بيـ　　ـنكِ فى الْلُّبِّ وبيني

* * *

أكذبيني واكذبيني　　كلما شئتِ اكذبيني
ما غَناء اللبُّ عندي　　ان أبى أن تخدعيني
أنا فى ثروةٍ وفـر　　منهُ مهما تسلبيني
أنقِصيها . أي ضَيْرٍ ؟　　درهماً أو درهمين ! !

تبرير على أي حال .

* * *

وحين قرأت كتابه (فى بيتى) اشتهيت أن يفتقد المرأة فى هذا البيت ولكنه لم يفعل ! حين تحدث حديثاً طويلاً عن كتبه . . عن النور . . . عن . . . ولكن شعره وشى به فى نفثة من نفثات النفس :

ظمآنُ ظمآنٌ لا صوبُ الغَمام ولا　　عذبُ المُدام ولا الأنداء تَرويني
حيرانُ حيرانٌ لانجمُ السماء ولا　　مَعالِمُ الأرضِ فى الغَمَّاء تهديني
يقظانُ يقظانٌ لا طيبُ الرقاد يُدا　　نِيني ، ولا سمر السهار ، يُلهيني
غصَّانُ غصَّانٌ لا الأوجاعُ تُبليني　　ولا الكوارثُ والأشجانُ تُبكيني
أسوانُ أسوانٌ لا طبُّ الأساة ولا　　سحرُ الرقاةِ من اللأواء يشفيني
سأمانُ سأمانٌ لا صفوُ الحياةِ ولا　　عجائبُ القَدَر المكنونِ تَعنيني
أصاحبُ الدهرَ لا قَلبٌ فيسعِدُني　　على الزمانِ ولا خِلٌّ فيأسوني(١)

---

(١) وهج الظهيرة .

وإذا عرفنا أن العقاد أحب أكثر من مرة وظفر بالحب ، تبينا أن القلب الذى يعنيه هنا إنما هو القلب الباقى . . قلب الزوجة . ويؤكد هذا الأبوة الكامنة فى شعره والتى تظهر فى وصفه للطفولة ودلها ،وصف والد متحنن (قصيدة بين محمد وعزوز) . وصورته الطريفة التى رسمها لطفلة يداعبها :

ما كان أملحَ طِفلةً — من غير شيء تَخجلْ
ضاحكتُها فتمايلتْ — وشعُورهـا تتهـدَّلُ
ورجَوْت منها قبلـة — فأبَتْ كمَنْ يتـدلَّلُ
وتعبتُ وهى تصدُّنى — حيناً وحيناً تُقبِـل
فرفعتُ مرآة لهـا — فتطلعت تتأمَّـل
قلتُ انظرى فى وجهها — أفأنتِ أم هى أجملُ
قالت وفيها غضبـةٌ — أنا بالملاحَةِ أمثَـلُ
ومضت تقولُ إلى متى — تنسَى الجميلَ وتجْهلُ
وأقـول أيُّكما إذن — أدعُو بهـا فأقبلُ
عطفت علىَّ وكل محبو — ب يَغـار فيسهُل (١)

بقى سؤال يلوح فى الخاطر . . ما رأى العقاد فى الجمال ؟

والجمال فى المرأة هو « الحرية الموزونة » قياساً على قاعدته فى الجمال إنه الحرية .

وكأنه يلمح (نفرتيتى). أو (نفرتارى) . . . جمال (المصرية) فى

---

(١) يقظة الصباح .

العصور الأولى أيام كان (المصريون فى عظمتهم قبل آلاف السنين يستجملون من الأجسام كل حر رشيق ويجعلون الأمثلة العليا للجمال تلك الصور التى توشك أن تطير من الخفة كما نراها على بقايا الآثار) .

الجمال المصرى القديم الذى ثاب إليه العالم كله بعد الحرب العالمية جمال النحافة والرشاقة والنسج الدقيق .

ويرى هذا الذوق فى الجمال مقياساً على تقدم الأمة حين يدل الشحم واللحم على تأخرها وركودها ركود البطء والكسل حتى ترى (الكثافة الواهنة) كما يسمى الأستاذ العقاد ، البدانة ، مقياس الملاحة ! وجمل المحمل أو (التختروان) مثال الحسن المطلوب فى النساء .

ومن طريف قوله فى هذا : (تعلو المرأة السمينة وتهبط فى مشيتها وما تنتقل شبراً واحداً فى أقل من خطوتين ، والمقرظون من حولها يهللون ويكبرون ويباركون الخلاق العظيم ويعوذون هذا الجرم الذى لا تمضى فيه السيوف . . من لحظات العيون ومن حسد الحاسدين) .

وبمناسبة الجمال ، يقول الأستاذ العقاد إن أقبح رجل فى عين المرأة أجمل من جميلات جنسها،ويلح عليه هذا المعنى حتى على الشاطئ والفتنة من حوله يقظى تصول وتجول . وترى عينه إحدى العرائس تقبل صاحبتها فيغبطها أو يحسدها لست أدرى :

راحت إلى ترب تحاصرها   كلتاهما فى ضحوة العمر
راحت تحاصرها وتلثمها   وتضمها حيناً إلى الصدر

لا تلثمي فمها فما ظمئت يوماً لريقك والثمي ثغري[1]

وقد أوضح العقاد فى (سارة) الصفات التى تعجبه فى المرأة وإن كان فصّل هذه الصفات على مقاسه هو إذ يقول :

« هو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ، ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحاً « موقعاً » تشبيهاً بالغناء الذى ينطلق انطلاقاً وينبعث انبعاثاً ولكنه يقف حيناً يحسن به الوقوف . ويسكن حيناً يطلب منه السكون ، ويقف ويسكن على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذى يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع وطرافة السماع .

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى ، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان .

وهو يحب المرأة التى تدرك الفكاهة ويكره التى تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضاً مفتوحاً فى كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على إتقان المزاجين هو دليل « نيتشه » الذى يقول إن الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين فى المزاج والتفكير ، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما فى تمييز النكات .

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خادمة فيه لأنها سيدته الوحيدة ،

---

(١) يقظة الصباح .

ويحتقر المرأة التي تأنف من تلويث يديها في مطبخها كما يحتقر الرجل الذي يأنف من تلويث يديه في حقله أو حديقة داره .

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون « إنساناً » في بعض الأوقات بمعزل عن الأنوثة والذكورة ، فلا تكون الأنوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة) (١) .

وقد ظفر العقاد في دنيا القلب بذلك النموذج الذي تخيله أو حدده ، ظفر به مفرقاً ومجمعاً . فكانت الحبيبة الأولى (إنساناً) وكان (يحبها الحب الذي جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكانا كثيراً ما يتراسلان أو يتحدثان وكثيراً ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل إيثاراً للتقية، واجتناباً للقيل والقال، وتهدئة من جماح العاطفة إذا خافا عليها الانقطاع . . ولكنهما في جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان بأهداب الأغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق .

وكان يغازلها فتومئ إليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فإذا نظر إلى عينيها لم يدر أتستزيده أم تنهاه ، ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام النشوز . وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والأمل ، فإذا لقيها بعد ذلك لم ير فيها ما ينم عن استيائه ، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب ، وإنما يسمع الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح) . ويبدو أنه جاراها في أسلوبها — وقد كانت صاحبة

---

(١) سارة ١٣٨ — ١٣٩ .

أسلوب – فكنى عنها باسم (هند) ولم يصرح باسمها المعروف الذى كان هو الآخر كناية عن الاسم الأصلى الثابت فى شهادة الميلاد .

وحبه الثانى أى «سارة» . . لون آخر ولكنه يقابل النموذج الذى رسمه للمرأة المفضلة عنده فى مواضع شتى .

وصف العقاد سارة بأن (لونها كلون الشهد المصفى ، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء فى مسحة واحدة . وعيناها نجلاوان ، وطفاوان ، تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات ، فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة ، وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد فى تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر . وبين وجهها النضير،وجسمها الغضير،جيد،كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقاً لتمام الحسن من كليهما . . فليس هو جيداً كأى جيد . . ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام) [1].

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين تفرقت صفاتهما فى ذاتيهما واجتمعت الصفات والذوات عند العقاد حتى بعد أن غابت الغريمتان .

(كلتاهما أنثى حقاً لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحل محل الثانية ، وتوشك أن تزدريها .

---

(١) سارة ص ٩٣ .

فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة فى دير ، من غير حاجة إلى دير .

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر .

الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة ، إذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة ، أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هى النعيم والسرور .

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .

تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب فى بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبكى الطفل لينال نصيباً فوق نصيبه من الحلوى .

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة وتعرضها فى معرض الزينة والمباهاة .

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاصة والبساطة .

لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت فى السلك السياسى ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديماً فى حاشية أمير مفراح .

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال فى هند كالحصن الذى يحيط به الخندق ، أما الجمال فى سارة فكالبستان الذى يحيط به جدول من الماء



النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور .

تلك ذات طموح وهم ، وهذه تحسب الواقع الذى يوائمها خيراً وأشهى من كل مطمع ومن كل همة .

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف .

كلتاهما ذات ثقافة وألمعية ، لكن ثقافة هند إلى المعرفة ، وثقافة سارة إلى الفطرة .

يقول العقاد — الذى هو فى القصة . . . « همام » .

(ما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة إلا هاتين الصورتين المتقابلتين إحداهما قائمة فى محراب ، والأخرى بائقة كالزهرة من زبد العباب .

وتعاقبت الأيام فأصبحت إحداهما صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الأخرى كما كانت تمثالاً من لحم ودم)[1].

ولكن ذلك كتب قبل أن يلتقى العقاد بالفاتنة المصرية السمراء التى تركت له بدورها صورة مشهورة رسمها له أولها الفنان صلاح طاهر .

* * *

طويلة قصة العقاد مع المرأة ولعله لخصها فى هذه السطور :

(حواء أخرجت من جنة ، وبناتها كل يوم يخرجن من جنات . .

---

(١) سارة ص ١٦٤ .

فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندرى . . ولكنها هى المرأة أبداً لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها أو يسعد بغير سعادتها ، وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها ، ولم يرضها أن تشاركه السعادة الوافية ، إن كان للسعادة سبب سواها)(١).

والجملة الأخيرة تشى بمكانة المرأة عند العقاد أو نظرته إليها سواء رضى عنها أو رضى عليها .

إن المرأة فى الحالين تريد أن تكون شغل الرجل الشاغل . . وقد كانت . . من واقع أدب العقاد . . لقد كتب العملاق عن المرأة ستة كتب :

الإنسان الثانى – سارة – هذه الشجرة – المرأة فى القرآن الكريم – الصديقة بنت الصديق – فاطمة الزهراء .

وقد أشرت إلى الأربعة الأولى فى ثنايا هذا الحديث والآن نقف وقفة عند كتابيه عن أم المؤمنين عائشة وأم الشهداء فاطمة الزهراء .

وأم بطل كربلاء لم يكتب لها العقاد ترجمة كما سبقت الإشارة لأنها بنت محمد أو يكتب لها ترجمة لأنها زوج على أو يكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء ولكنها مع هذه الكرامة كتب لها ترجمة **لأنها هى فاطمة** ولأنها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير .

---

(١) سارة ص ١٤٦ .

وإلى فاطمة الزهراء نسب فضائل بنيها وإن كانوا ورثوها عن على كما ورثوها عنها ولكن الأستاذ العقاد رأى هذه الخصال (إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام)(١) .

وأوضح سمة فى شخصيتها عنده (الجد) وفى خلائقها منه مدد صالح (للثبات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم)(٢) .

وهذا الثبات رسم مسيرة أبنائها على طريق التاريخ الإسلامى .

فإذا كانت الزهراء قد غوضرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين فمعنى هذا كما يقول الأستاذ العقاد أن هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة ظهرت منها وهى فى تلك السن الباكرة فذلك عنده (دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين)(٣) .

وهذا الإقرار من الأستاذ العقاد فى دلالته العامة كسب للمرأة قبل أن يكون كسبا للسيدة البتول .

أما السيدة عائشة فقد ترجم لها مثلاً من أمثلة الأنوثة الخالدة فى جميع أقوامها وجميع عصورها .

* * *

فالأستاذ العقاد لم يستطع أن يغفل المرأة أو يغفل عنها وكيف وقد بلغ

---

(١) ص ٧٢ كتاب فاطمة الزهراء . (٢) ص ٧١

(٣) ص ٧٣ .

من قوة أثرها فيه أو عليه أنه جفا من جفوتها طريقاً كان رفيقاً إذ شهد وسمع السر والنجوى (فأصبح بعد الخصام كل خطوة فيه كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام . وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفي فيها رصيداً من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور وأهون المحذورات) (١)

ليس للمرأة أن تتغضب من العقاد فقد أغضبته هي الأخرى ، ثم نسي غضبته ونسيت ولم يبق إلا إكبارها له وإكبارها لوقفته المبكرة معها سنة ١٩١٢ حين نادى بتعليم المرأة تعليماً عاماً لا تعليماً نسوياً مصعداً بها إلى الأفق الأعلى من الثقافة الإنسانية الرحيبة .

---

(١) سارة ص ١٠ .

الفصل الخامس

الإنسان في شعر العقاد

كان العقاد إنساناً حين اختار شخصياته التي كتب عنها وحين اتهج هذا الأسلوب في الكتابة والتفسير . والعقـاد حين أعلى من كرامة الإنسان كانت هذه عنده رسالة التزمها في كل ما خطت يده نثراً أوشعراً . ونستطيع أن نرى قيمة هذا إذا عرفنا أنه نشأ في أواخر القرن التاسع عشر وبلغ مبلغ الرجال في الثلاثينات من القرن العشرين . أي عندما كان الشاعر نديماً لكبير،أو سميراً في مجلسه،أو بوقاً للملك أو ظلاً لآخرين تحت مختلف الأسماء . أيام كان الشعر مدحاً والشاعر مداحاً على طريق وطريقة الشعر العربي القديم وهو ما ندد به الجاحظ في بيانه هاجمـه العقـاد والمـازني وشكري ، أعمدة مدرسة الديوان ، هجوماً عنيفاً في مطلع الحياة الأدبية. منتصرين لكرامة الإنسان ثائرين على هوان الشاعر في القصيد الكاذب والنظم الأجوف . وقد تركت هذه المدرسة بصماتها على الحياة الأدبية.

وليس معنى هذا أن العقاد لم يمدح قط ففي ديوانه (أعاصير مغرب) قسم خاص بالمدائح والمراثي ، ولكنه إذا استثنينا مدحته في (فاروق) فإن مدحه الآخر قيل في أناس كانوا يحترمونه بقدر احترامه لهم ، بل كانوا يعرفون لقلمه سطوته . ألم يدعه سعد (الكاتب الجبار) ؟ وقد مدح العقاد

سعداً الذى أكبره ، عندما كان الوفد يمثل الشعب . وفى قصيدته (يوم المعاد) ينبع كل شيء من مصر والشعب .

ورثا العقاد ، سعداً ، بقصائد تهمى تنتظم ما يقرب من مائتى بيت (١٨٧ بيتاً) فى ديوانه (أشجان الليل) فيها صدق اللوعة وزفرة الأسى .

ومدح العقاد إعجاب رزين فلم يكسف الشمس لأحد ولم يحشد له ألوان صيغة (أفعل) .

على أن مدحه (لفاروق) إنما كان فى مطلع عهده عام ١٩٣٨ أيام كان مرجى (فى طالع الأيام مرتقب ولم يكن قومنا يختلف منهم اثنان على حب فاروق فى ذلك الوقت . وكان حبنا له أمل ورجاء وعطف على صباه الأعزل وهو الملك ! فنحن شعب عاطفى كنا نراه يتيماً والعرش تحته . ومع هذا فقد ذكّره العقاد فى مدحته (بالشورى) .

وقصيدة فاروق لا تخلو من طرافة . فيحكي الأستاذ العوضى الوكيل فى كتابه (العقاد والتجديد فى الشعر) أن الأستاذ العقاد وقف يلقى القصيدة وعندما بلغ البيت الثامن قال فاروق لمن حوله (لقد كان والذى أحق بهذا) وسمعها العقاد فطوى الورقة وجلس ولم يكمل القصيدة ، وكانت أزمة كبرى ، استمرت ثلاثة أيام وانتهت بأنه — ترضية للعقاد واعتذاراً له — يدعوه الملك إلى حفل شاى بيخته الراسى أمام مرسى مطروح ، ويقول العقاد (إن القدر لم يشأ أن تتم حفلة الشاى فثار البحر ومنع الوصول إلى اليخت . . . وعاد العقاد إلى الإسكندرية) .

* * *

إن المسألة ليست المدح فى ذاته وعلى إطلاقه فقد مدح العقاد ورثا كلبه (بيجو) شعراً ونثراً،إنما ملاك الأمر شخصية الشاعر وإحساسنا بذاتيته الإنسانية أى إحساسنا بذاتنا من خلاله ولا عليه بعد هذا أن يقول ما يريد وفى أى إطار يشاء .

ومثل هذا رثاؤه . فقد رثا السلطان حسين والرثاء فى رأيي مدح للميت وما خرج عن مألوف قاعدته لأن السلطان حسين كان عهده قصيراً خفيفاً يحتمل :

مرت ثلاث سنيه وهى كأنهـــا   صبح غداة الأمس حـل ظلامه
مرت مخففة الصروف سريعـــة   وكذا الرخــاء سريعة أيامـــه

ولكنه فى جملته رثاء من قبيل (اذكروا محاسن موتاكم) ليست فيه الفجيعة أوحتى الحزن . ولكنه حين رثا نبي الوطنية المصرية « محمد فريد » ، تفطر أسى :

أطلقْتَ وُجداني ومثلُكَ يطلِــقُ   فالنفسُ تألَمُ والجوانِحُ تخفِــــقُ
مرَّتْبيَ الأيـــام أنكر كلمـــــا   يُبدِى الخيالُ وما يُعيــدُ المَنطِقُ
أجفُو الكلامَ ، وقد يُنوِّتُ مكتَــو   تاجٍ ويسكتُ فى اللَّظَى من يَحْنَقُ
أسَفِي عليكِ وقد تقسَّمَكِ الضَّنَى   والشَّوْقُ والألم المِلِحُّ المصعِــقُ
فى عالمٍ يسَعُ المــدائنَ والقُــرى   فإذا طلبتُ الحقَّ فهو المــأزقُ
وغدوتُ كالشبَحِ المردَّد كلَّمـــا   دجَتِ الحوادثُ يستثارُ فيطــرُقُ
مُثِّلتْ لعيني صورتاك فــرابَني   نظرى ولــكن الفجائعَ تصدُقُ
أكذا تحور النفس فى أجسادها   أكذا يحول الرونق المتــألـــق

في هـذه سَمَتِ الحياةُ ، وهذه ... فيها الحياةُ بقيـةٌ تتعلّـقُ
وهنا الطّماحُ المشرئبُّ ، وها هنـا ... سأمٌ على رغمِ التجلـد محـدَق
شكلان ما اختلف اختلافُهما على ... بُعْـدِ الوشيج مغـرِّب ومشرقُ
حالت مجالى البِشْرِ وانطفأ السَّنى ... في وجهكِ الضاحِي وغاضَ الرونَق
في خمسةِ الأعوامِ بُدِّلَ كُلُّـه ... إلا سماحـةَ ماجدٍ لا تَخلُـق
وتساءل الأحبابُ كيف تـرونَـه ... فتلعثموا حذَر الجـوابِ وأطرقُـوا
وأتى النعيُّ فقـال كُلٌّ مروَّع ... اليوم تُبتَذل الدموعُ وتُهـرَقُ
ما مات قبلَك يا فـريدُ مجـاهد ... إلا وأنت السـابِقُ المتفـوِّقُ

لم يرث العقاد أحداً من الحاكمين كما رثا رجال مصر ، لم يمدح أحداً من الحاكمين كما مدح « رمسيس » في اعتزاز الحي بنفسه ، والمصري بأمسه ، والوطني بكرائم تاريخه وآيات مجده .

لجلالِ وجهكَ يا ابن (سيتى) هيبةٌ ... تعنُو لهـا الآمادُ فهى هَبـاء
لمـا وقفتُ لديكَ زالت أعصـرٌ ... بينى وبينـكَ وانطوت آنـاء
وتقشّعتْ عنى الدُّهور فها هنـا ... تلك الدِّيار وها هنـا القُدَماء
فخر الملوكِ رجاء عفـوكَ عنهـم ... ورضـاك أكبرُ ما ابتغَى الأمراء
والأمرُ أمركَ مـا قضيتَ فنافـذٌ ... فيهم وما لم تَقضِ فهـو هبـاء
والنيلُ يجرِى حيثُ سار عليه من ... أجنـادِ عصرِكَ عصبةٌ زهـراء
وكأن طيبةَ والحيـا كلُّ حولهـا ... ملءُ الفضـاء أواهلٌ شَمّـاء
يشدو بذكركَ شيخُها ورضيعهـا ... وبحبِّـك السـادات والوضعاء
في كل يومٍ يستطيرُ جنـانَهم ... نصرٌ يزف ومنحـةٌ غـراء

لسمعت (بنتاءور) يُنشِدُ شعرَه ... فتهزُّ ساحةَ قصرك الأصداءُ
ورأيتُ قصرَك في المدائنَ يحتمي ... فيه الضعيفُ ويعبث العُظماءُ
والقوم حولك خاشعون كأنهم ... يحمى (أمون) لجمعهم إصغاءُ
تَلْقَى الوفود العائدين وكلُّهم ... بيضاً وسوداً ، أعبدٌ وإماءُ
ثم انتبهت كأنما هي في الكرى ... رؤيا تُلفِّقُ نسجَها الظلماءُ
فبكيتُ مصرَ وهل يفيدُ إذا جرى ... حُكْمُ القضاء على الديارِ بُكاءُ (١)

وهي طبقة من المدح لم يبلغها في شعره حاكم في عصره ، **وهو دليل صدقه النفسي والفني**. ومصر الفرعونية لم تبرح منه الفكر والقلب حتى في أطلال بعلبك التي خاطبها بقوله :

آتاكِ من الوادي الذي في ضِفافِه ... تسامىَ (لآمون) البناءُ المدَعَّم
يُحيِّيكِ عن (آمون) في مستقَرِّه ... وأنت المحيِّي باسمه والمُسلِّم

على أن العقاد في كتابه (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي) قال كلمته في المدح ومقياسه والذي يعتقده (إن شعر المديح من أفضل المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأديب في وقت واحد . فيخطىء من يظن أن الأمم المترقية لا تمدح أو لا تقبل المدح من شعرائها . إذ المديح جائز في كل أمة ومن كل شاعر ، فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ القصيد في مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه ، ولا ضير على الأدب أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التي يعرفها الغربيون أو الشرقيون . وإنما الخلاف في **نوع** المديح لا في **موضوعه على إطلاقه**

---

(١) وحيح الظهيرة ص ١٩١ .

فمديح الأمم المتعلمة غير مديح الأمم الجاهلة ، والشاعر الذى يملك أمره يتبع فى مدحه أسلوباً غير الذى يتبعه شاعر مغلوب على أمره ، ومكانة الأديب فى الأمة تظهر أتم الظهور من أساليب الشعراء فى هاتين الحالتين ، فلن يقال إن للأديب مكاناً فى الأمة والشاعر مضطر فيها إلى إذلال عقله وتسخير كرامته فى مديح لا تسيغه العقول ولا يليق بالرجل الحر المريد لما يقول ، ولن يقال إن الأمة متعلمة والمبالغات الشعرية فيها تؤخذ مأخذ الجد والوقار ، وهى أقرب إلى الهزل والهجاء المستور ، أو لن يقال إن الأمة حرة تشعر بوجودها وأنت تقرأ مدائح شعرائها فلا ترى فيها ذكراً لغير الرؤساء ، ولا ترى فى الصفات التى يمدحون بها صفة ترجع إلى الأمة وتعتمد على تقديرها أو تستفاد من خدمتها والعمل بمشيئتها) (١) .

وشعر العقاد فيه إنسانية حتى فى وصف الأشياء فنور المنار (أرق يقلب مقلتى ولهان) ووميضه على البحر أفكار وأشجان وهو (كالبيت يجمع بعد شتيت النوى : شمل الأحبة فيه والإخوان) .

وهو إنسان حين يودع شعره التجارب الإنسانية وآلام الإنسان تحت وطأة كل الظروف ، وآماله وغروره وأوهامه ومطامعه .

فقصيدة الشاعر الأعمى فيها عذاب إنسان محروم من النور الذى يجود به الأفق لعين الذئب فلا يرى جمال العيون فى المها ولكنه يرى لحمها والشحم ، ولا يرى در الجيد فى الغيد كالجوهر ولكنه يرى الدم عالقاً بالمخالب . ويلمح قلبه البئر عميقة القرار لا حاجة بها إلى النور الذى تهدره

(١) ص ١٨ — ١٩ .

الشمس فيها أو تريقه فوق الرمال . وتبلغ المأساة قمتها فى هذا البيت ينفثه الشاعر الحزين :

وهل كنتُ أخشَى المـوتَ إلا لأنه سيحجبُ عنّى حسن تلك المناظر(١)

إنسان وهو يعيش تجربة العقاب الهرم الذى يهم ويعييه النهوض فيجثم فى عجز يعمق خطوطه ترنيق الصرصور وصياح القطا . لكأنه طريد السماء كما طرد إبليس من الجنة .

إغفاءته فزعة خائف ، وغمضته حلم ماض ذهبي ولى ولن يعود. وتأتى اللفتة الإنسانية الكبيرة فى هذا البيت :

لعينـيـكَ يا شيخَ الطيورِ مهابَـةٌ يفـــر بغاثُ الطَّـيْرِ عنها ويُهْزَمُ

مع كل هذا العجز والضعف يشفع الماضى القوى الجسور . إذن لن تذهب سابقات الأعمال وإن أتت من طائر . لكل كائن ما قدم بين يديه .

* * *

وهو يألم للضعف الإنسانى الذى يغفل الضمير الحى فينسى العهود ويجحد الجميل . وتعمق خطوط الصورة فى مقطوعته (خمارويه وحارسه) — مشيراً إلى قصة الأسد الذى كان يحرس خمارويه — بالمقارنة بين الأسد والإنسان :

أليسَ من العجـــائبِ أنَّ لَيْثـاً يَذودُ رعيـــةً عمَّنْ رعاهـــا ؟
وأن يَحمِي ابنَ آدمَ من أخيـــه سِباعٌ جَلَّ أن يُدْعى أخـاهـــا
وثِقْتَ بِذِى حفاظٍ ليس يرشِى ولا يَنْسَى الحقـــوقَ لمن حباهـــا

---
(١) يقظة الصباح .

وهم قتلوكَ حين وثقتَ منهم ... وكم حَفِظَ العهودَ فما اعتداها
ولو شهد اغتيالَكَ فى دمشقٍ ... لضرَّجَ بالجناية من جناها (١)

تجربة لعلها واحدة من تجارب كثيرة جعلته يتساءل فى الديوان نفسه : أين الحقيقة ؟ ولم ينتظر الجواب بل أودعه فى هذه الأبيات :

أين الحقيقةُ ؟ لا حقيـ ... ـقةَ كل ما زعموا كلامْ
الناسُ غَرْقَى فى الهوى ... لم يَنْجُ غِرٌّ أو إمامْ
إن الحقيقة غـادةٌ ... كالغيدِ يُضمرُها اللثامْ
كلٌّ يَهيمُ بها فـإن ... لاحَتْ لَهُمْ صَدُّوا وهاموا
كم أشرَقَ الحقُّ الصر ... احُ فأعرضَتْ عنه الأنامْ
والناسُ لو تدرى خَفـا ... فيش يَطيبُ لها الظلام
لا حـقَّ إلا أنـه ... لا حَقَّ فى الدنيا يرام

شعره فيه أبعاد وأعماق :

وهو لا يعفى نفسه من التأمل والتعمق حتى فى حضرة الجمال الذى (يقف عليه تحيته وحياته) فما يلبث أن يخاطبه :

أوتيتَ من حُسْنِ الشمائلِ نِعْمَـةً ... والحسنُ فى الدنيـا من الآفات
هو جوهرٌ يجنِى عليـكَ وميضُـه ... عدوانُ سُرَّاقٍ وحقـدُ عُفـاةِ
والحسـنُ يعشَقُه الكريمُ وربمـا ... أضْرَى لئيمُ النَّفسِ بالنزعـاتِ
كالبـدرِ يَأتمُّ السراةُ بنـورِه ... ولقد يُضىء مواقـعَ الشبهاتِ (٢)

---

(١) يقظة الصباح .
(٢) يقظة الصباح ص ٣٢ .

وكأنه يحس غرابة عظته للجمال فيقول معللاً :

إني ليؤلمُنِي الجمالُ إذا هَوَى فارتدَّ بين أبالسٍ وغواة
أقسى القلوبِ تلينُ إن هي أبصَرَتْ ورقاء نهبَ قشاعِمٍ وبزاةِ

وناقش العقاد الشاعر الخلود في الآخرة في قصيدته الكبرى (ترجمة شيطان) وطاف بما يدور في أخلاد المنكرين من معان . . معاني الشك واليأس والحيرة والضلال أيضاً . . وانتهى منها بأن الراشد سيمضي والغوى سيزول ويبقى الفن وحده (يستهوى العقول) .

الفن أبقى من القوة . . . فالكروان :

ما ضر من غنى بمثل غنائه أن ليس يبطش بطشة العقبان

الفن يحيي الميت ويرد الروح :

إذا شيَّعوني يوم تُقضَى منيَّتِي وقالوا أراح اللهُ ذاك المُعذَّبا
فلا تحمِلوني صامتينَ إلى الثَّرى فإنِّي أخافُ اللَّحْدَ أن يتهيبا
وغنُّوا فإن الموتَ كأسٌ شهيَّةٌ وما زال يَحلو أن يُغَنَّى ويشرَبَا
وما العيشُ إلا المهدُ مهد بني الرَّدَى فلا تحزنُوا فيه الوليدَ المغيَّبا
ولا تَذْكروني بالبكاء وإنما أعيدُوا على سَمْعِي القصيدَ فأطربا

يقظة الصباح

وبمناسبة الخلود نذكر سخريته ممن يعنون أنفسهم بنقد العصاة والكفار . . . وما فطنوا أنهم (بكفرهم) يريحونهم من المنافسة في الجنة ومزاحمتهم فيها :

نَقِمُوا على الكُفَّارِ أن تَركوا لهمْ أجرَ السَّماء وأنكروا ما أنكروا

لوكان ما وعدُوا من الجنّــاتِ فى　　هذى الحيــاةِ لسرِّهم من يكفُــر

كما سخر من المقادير التى ترزق الغنى بغير حساب ، الفصاحة والحب والغفران والسيادة وخدمة الناس .

وسخر من تقوى المشيب :

أبعــد الشيبِ ترغبُ فى الصلاح　　وتزهَـــد فى المُدامة والمـــلاحِ

فرغْتَ من الحَيـــاة فأنت ترجو　　حيـــاةً فى الفراديس الفِســـاحِ

رجعتَ عن الحـــرام فأنتَ عندِى　　عجزتَ عن المحـــرَّم والمُبـــاحِ

فما تَقْوَى الشيوخِ سوى اضطرارٌ　　كتقـــوى اللّصِ بات بلا سلاحِ

يقظة الصباح

وأجرى العقاد فى ديوانه (وهج الظهيرة) حواراً طريفاً بين المعرى وابنه بالغيب نابعاً من بيت أبى العلاء :

وإذا أردتُمْ بالبنِينَ كـــرامـــةً　　فالحـــزمُ أجمع تركُهُمْ فى الأظهُرِ

يا أبِى طال فى الظلامِ قُعــودِى　　فمتى أنتَ مخرجِى للــوجـــودِ ؟

طال شوقِى إليك فاحلل قيـودِى

يا أبِى عـــالَمُ الظـــلامِ مخيفٌ　　ليس يَقْوَى عليه طفـــلٌ ضعيفٌ

فأجـــزنِى من ظلّه المـــــدود

ما الوجوه الحِســـان ؟ ما النّـــوارُ　　ما الدرارىُّ ؟ ما الفلا ؟ ما البحار ؟

إن دأب الوليـــدِ حُبُّ الجديد

لى جـــدودٌ وليس لى أبـــوان　　ولئن شئتُ آن فيـــكم أوانى

وتَمَلَّيتُ قِســـمتى فى الـوجـــودِ

ولكن أباه . . . أو أبا العلاء يقنعه بآرائه المعروفة . واقتنع الصغير واكتفى بالانتظار حتى التقيا فى اللحد .

وفى شعره **عنصر الفكاهة** . والفكاهة من أخص خصائص الإنسانية حتى ليعرف البعض الإنسان بأنه حيوان ضاحك .

أفضى إليه صديق بأن كلبته ولدت فقال يبارك للنفساء ويحيي المولود :

أعلِنِي (يافلورة) الأفراحا   واملئى الأرض والسماء نُباحا
ما حبَى الدهرُ بنتَ كلبٍ بأعلَى   من ذراريك عنصراً ولقاحا
أبشِري دولَةَ الكلابِ بجَروٍ   سوف ينفِي عن جيله الأتراحا
ما تَقَضَّى الأسبوعُ إلا تمشَّى   يذرع الدار جيئةً ورواحا

ويرمز ويسخر سخرية ملفوفة :

سوف يُدْعَى على الكلاب أميراً   يُفزِع الأسدَ وثبةً وصياحا
يلبَسُ الطوقَ من نُضارٍ ودُرٍّ   ويحوكُ الخزَّ الثمينَ وِشاحا

ويعود إلى مدح وليد (فلوره) وهو المترفع عن المدح حفاظاً على كرامته :

ما مدحتُ الأنامَ يوماً وإني   لستُ آلوك يا كُلَيْبُ امتداحا
أعجَمَ الناسُ فى الوداد ومازا   ل بنو الكلب فى الوِداد فِصاحا
إن عِيَّ اللسانِ خيرٌ من النُّط   ـقِ إذا كان للأذاةِ سلاحا
وسُعارُ الكلابِ أهونُ شرّاً   من سُعارٍ يمزِّق الأرواحا

يقظة الصباح

وحديثه عن وفاء الكلاب يذكرنا بحزنه على كلبه (بيجو) الذى بلغ فيه أعلى درجات الإنسانية حين يسع عطفها كل شيء وتتجاوب مع الحيوان

وتتحد بالطبيعة :

حـزناً عليـه كلّمـــا لاح لى
بالليـــــل فى ناحية المنـــزل
مُســامِرى حينـــــاً ومُستقبِلى
وسـابِقِى حينـــــــاً إلى مدخَلى
كأنه يعـــــلم وقتَ الـرجـــوع

* * *

حـزنى عليـه كلمـــــا عـزّنى
صـــدقُ ذوِى الألبـــابِ والألسُن
وكلمـا فـوجئت فى مَـــأمَنى
وكلمــــــا اطمـأننتُ فى سكنى
مستغنيـاً . أوغانيـــاً بالقنـــوع

* * *

أبكيكَ . أبكيكَ وقــــلّ الجزاء
يا واهبَ الـــود بمحضِ السـخاء
يكـذب من قال طعــــامٌ وماءْ
لـوصَحَّ هـــذا ما محضْتُ الوفاء
. لغـائب عنـكَ وطفلٍ رضِيع(١)

---

(١) أعاصير مغرب .

ومن الفكاهة صورة غير عابرة رسمها لعسكرى المرور فى ديوانه (عابر سبيل) :

متحكمٌ فى السراكبين ... وما له أبداً ركوبه
لهم المشوبةُ من بنسا ... نك حين تأمر والعقوبه
مُرّ ما بدالك فى الطريقِ ... ورُضْ على مَهَلٍ شعوبه
أنا ثائر أبداً ومـا ... فى ثورتى أبداً صعوبه
أنـا راكبٌ رجلى فـلا ... أمرٌ علىَّ ولا ضريبـه

* * *

وكذلك راكب رأسه ... فى هذه الدنيا العجيبة

* * *

حتى فى الفكاهة لا ينسى (الحرية) أو النفرة من الأوامر والنواهى.

ومن مداعباته الفكهة لأصدقائه ، قصيدته عن كلب الشاعر طاهر الجبلاوى :

حزناً على كلب طاهرٍ ... فإنه طـاهرُ الكـلاب
تَشابها فى خليقـةٍ ... واتفقا ، شيمةَ الصّحاب
وربمـا عَىَّ طـاهرٌ ... وكلبُه حـاضرُ الجـواب
فليس يُوفيه حقّـه ... منَ اكتئـابٍ أو انتحاب
إلا إذا بات نائحـاً ... نبح المساعيرِ فى الخراب
عوعو ، عووووبلا وَنِيٍّ ... ولا انقطاع ولا اقتضاب
لا تَسألوا رحمـةً لـه ... قد رحم اللهُ واستجاب

لعلّه مات قانطاً من (أزمة) الأكل والشراب
أراحه الله من ضنىً أنقذه القبر من عذاب

وشاعر آخر . . . كان العقاد يوفد عنه الشاعر العوضى الوكيل فى المآدب . فكتب مرة إلى الأستاذ إبراهيم الدسوقى أباظة باشا يؤكد (توكيله) للعوضى الوكيل فى (التأكيل) .

يا مُطعِمَ الأدباء من خيرِ الذّبائح والبُقول
ما طاب من ضأنٍ ومن طيرٍ ، ومن عدس وفول
«عوضى الوكيل» إذا دعو تُم دعوةً عوضى الوكيل
عوّض إذا ما شئتم عنىَّ وأكال أكيل
بين الموكِّل والموكَّـ ـل ، فاز بالغنم الأصيل

أنا هنا لا أتكلم عن شعر العقاد من الناحية الفنية فإنما يعنيني هنا الناحية الإنسانية وحدها لارتباطها بموضوعى وتعميقها له . وإلا دخلت فى مناقشة (ديوانية) عن الشكل ، (القافية) حين عنيت بالموضوع ، ومناقشة لغوية عن اللفظ ، حين احتفلت بالمضمون — وعلى ذكر اللفظ حفل شعر العقاد فى شبابه بالألفاظ اللغوية وكأنها معرض لمحصوله منها. وحفل تبعاً لهذا بالهوامش والشروح — وعادة التكثر باللفظ يبدو أنها لازمة للأديب فى مطلع حياته الأدبية .

* * *

وبعد ، فهذه لمحة من شعر العقاد الإنسان أو إنسانية العقاد الشاعر .

الفصل السادس

العقاد يترجم للعقاد

تبدأ القصة في سنة ١٩٤٦ .

قال العقاد رداً على أمل أن يكتب كتاباً في حياته (سأكتب هذا الكتاب وسيكون عنوانه «عني» وسيتناول حياتي من جانبين : الأول حياتي الشخصية بما فيها من صفاتي وخصائصي ونشأتي وتربيتي البيتية والفكرية ، وآمالي وأهدافي،وما تأثرت به من بيئة وأساتذة وأصدقاء،وما طبع أو انطبع في نفسي من إيمان وعقيدة ومبادئ . أو بعبارة أخرى : («عباس العقاد الإنسان» الذي أعرفه أنا وحدي ، لا عباس العقاد كما يعرفه الناس ، ولا عباس العقاد كما خلقه الله .

والجانب الثاني : حياتي الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصلة بمن حولي من الناس أو بالأحداث التي مرت وعشت فيها أو عشت معها ، وخضت بسببها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم أبرز ما عشت فيها ، أو بعبارة أخرى «حياة قلمي»)[1] .

أما الجزء الأول من الكتاب الذي كان مأمولاً فقد تكفل به أو ببعضه كتاب (أنا) الذي جمعه من مقالاته المتفرقة الأستاذ طاهر الطناحي بل أعطاه العنوان .

---

(١) كتاب (أنا) .

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد تكفل ببعضه كتاب : حياة قلم .

وما زالت حياة العقاد موضوعاً خصباً لكثير من الكتب والدراسات .

ترجم العقاد لنفسه في كتابيه (بحياة قلم) و (أنا) .وحسناً فعل أو فعل الذين رغبوه في الكتابة عن تاريخه أو تاريخنا في سبعين سنة حافلة بالأحداث . ففي هذه الترجمة صور مدينة أسوان في أواخر القرن التاسع عشر وصفاً تفصيلياً لم يخطئ حتى اللعبات المفضلة عند الأطفال . . .

تكلم عن مدارس الصحافة وأولها مدرسة عبد الله النديم التي نشأ فيها مصطفى كامل،وإن كان العقاد نفسه ليس من تلاميذها بل لقد عارضه في طفولته الباكرة — كان تلميذاً في الثانية عشرة — حين أنشأ من قصاصات الورق ، (لا مراكب) كالأطفال ولكن مجلة يعارض بها مجلة (الأستاذ) لعبد الله النديم .

حتى الاسم عارضه الطفل عباس فسمى مجلته (التلميذ) . وصدقت كلمة أمهات مدينتنا أسوان التي كن يرددنها لأطفالهن كلما أصابهم ما يسوءهم من التورط في المزاح معه وراء الحد الذي يسيغه . فإذا ذهبوا إلى أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب : « أمزح مع من شئت يا بني . . ولكن . . كل الناس ولا عباس » .

ومن الطريف أن صحيفة العقاد أو مجلته المخطوطة (التلميذ) لم يصدر منها غير بضعة أعداد لم يكن لها من قراء غير زملائه في المدرسة وأقاربه المشجعين أو المتندرين المتفكهين . ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن .

ولكنها تركت آثارها فى نفسه طويلاً بل حددت وجهته فعرف بعدها أنه ليس للجندية ولا للزراعة كما كان يحسب فى سن الأخيلة والأوهام والأحلام . . إنها صناعة القلم لا غيرها . . . وما أمنية الجندية وعلوم الزراعة إلا (ترجمة لأمنية الكتابة مستعادة فى صورة من صور الصناعات الأخرى ، وبخاصة حين نذكر أنها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلوا كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والأحياء)[١].

وقد باعد بين العقاد وعبد الله النديم — على الرغم من وجوه شبه ظاهر بينهما — سببان : أحدهما يرجع إلى الأحوال العامة والآخر يرجع إلى المزاج الشخصى الذى فطر عليه .

ثم هناك طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه . فقد كان عصراً لا يسمح لمدرسة واحدة أن تطغى على أفكار الناشئة فى كل بقعة من بقاع البلاد المصرية . . لأنه كان عصراً مزيجاً مضطرباً بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما يوافقها وتوافقه من التفكير الحديث .

(كان عصرنا « برج بابل » يبنى ويعاد بناؤه بين عام وعام . كنا نعيش فى عصر الجهاد الوطنى على مذاهب ، ونعيش فى عصر التجديد الفكرى على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذهباً واحداً فى قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات)[٢].

---

(١) حياة قلم ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

حين أرخ العقاد لقلمه تناول بهذا القلم موضوعات كبيرة فتاريخ الصحف وأصحابها .

والصحافة قبل خمسين سنة أى فى أوائل القرن العشرين .

تحدث العقاد حديث العيان والتجربة عن (حق الصحيفة) و (عدة الشغل) و (التوزيع) و (المعلمين) . المسيطرين على التوزيع — والإعلانات و (الإعلانات السرية) ، و (أسعار الرتب) .

تكلم عن (الصحافة اليومية) و (غير اليومية) وعن وسائلها المشروعة وغير المشروعة ، تكلم عن مكاتب التحرير بين العتبة والفجالة .

وكم من مضحكات مبكيات يرويها العقاد فى سياق هذا الحديث أو البحث الدارس ، كثمن الفخر والثناء وطبقة المأجورين .

ومع هذا كله يرى أن الصحافة فى أوائل القرن العشرين قد أصبحت (هامة) ولم تصبح (عامة) إلا بعد حين .

وإلى هذه الظاهرة يعزو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة — بمقاييس المجتمع — وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس .

(وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة — يومية وغير يوميه — عارضاً غريباً على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يقصدها الصحفيون لأنهم صحفيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها . فربما سمى الكاتب فى الصحيفة بالتحريرجى ، أو الجورنالجى ، أو الغازيتجى ، أو المحرر من صناعة التحرير فى المطابع والدواوين التى

تكتب فيها الرسائل . . فأما كلمة « الصحافة » فهى بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن « فعالة » كالتجارة والحدادة والملاحة والنجارة وكل ما يأتي على هذا الوزن للدلالة على الصناعات .

ولو سئل الصحافى يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمسئول . . .)(١) .

ولكن هذا « العرض » لا يتركه العقاد بغير تعليل بل يغوص كعادته وراء السطح أو (الظاهر) إلى الأعماق البعيدة فيرى (للصحفى فى المجتمع المصرى أب واحد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته هو . . . اللبيب . .

اللبيب الذى يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذى يصغى إليه المتعلم المستفيد كما يصغى إليه « الفهيم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة .

واللبيب الذى يهبط حتى يصدق عليه وصف « الثرثارة » أو « الأدباتى » الذى يفهم بالإشارة ولا يتورع عن الحيلة فى طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالى ما يصيبه فى سبيله من الزراية والابتذال . . .

اللبيب هو « جد » الصحفى فى المجتمع المصرى ، على أسوئه وأدناه على أحسنه وأعلاه)(٢) .

أما عن الجزء الأول فيقول العقاد :

(إننى لا أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما خلقه الله .

---

(١) حياة قلم ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

فالله جل جلاله هو الأولى بأن يسأل عن ذلك .

ولن أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما يراه الناس فالناس هم المسئولون عن ذلك .

ولكنى سأتحدث عن عباس العقاد كما أراه .

وعباس العقاد كما أراه — بالاختصار — هو شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن الشخص الذى يراه الكثيرون ، من الأصدقاء أو من الأعداء . هو شخص أستغربه كل الاستغراب حين أسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه ، حتى ليخطر لى فى أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن إنسان لم أعرفه قط ولم ألتق به مرة فى مكان .

فأضحك بينى وبين نفسى وأقول : ويل للتاريخ من المؤرخين .

فعباس العقاد هو فى رأى بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن النية هو رجل مفرط الكبرياء .

ورجل مفرط القسوة والجفاء .

ورجل يعيش بين الكتب ، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس .

ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه .

ورجل يصبح ويمسى فى الجد الصارم فلا تفتر شفتاه بضحكة واحدة إلا بعد استغفار . . . واغتصاب .

هذا هو عباس العقاد فى رأى بعض الناس .

وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا رجل لا أعرفه ولا رأيته ولا عشت معه لحظة واحدة ولا التقيت به فى طريق .

ونقيض ذلك هو الأقرب إلى الصواب .

نقيض ذلك هو رجل مفرط فى التواضع ، ورجل مفرط فى الرحمة واللين ، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ، رجل لا يفلت لحظة واحدة فى ليلة ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ، ورجل وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة فى روايات شارلى شابلن جميعاً) .

وبين هذا وذاك رسم العقاد بنفسه صورته الصحيحة :

إننى لا أزعم أننى مفرط فى التواضع .

ولكنى أعلم علم اليقين أننى لم أعامل إنساناً قط معاملة صغير أو حقير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أننى أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ولو لم تكن بينى وبينه صلة مكان أو زمان كما حاربت هتلر ونابليون وآخرين .

وأننى لا أزعم أننى مفرط فى الرقة واللين .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى أجازف بحياتى ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف .

فعندما كنت فى سجن مصر رجوت الطبيب أن يختار لى وقتاً للرياضة غير الوقت الذى تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين .

فدهش الطبيب ، وظن أنه يسمع نادرة من نوادر الأعاجيب وقال لى فى صراحة : ما كنت أتخيل أن أسمع مثل هذا الطلب من العقاد

« الجبار » . والجبروت تنبأ به محمد عبده فى طفولته ووصفه به سعد زغلول فى رجولته وقد يبدو من الغريب أن تقرن الطفولة بالجبروت ولكن أحداث طفولة العقاد تنفى الغرابة وتؤكد غيرها .

ومثل من أمثلة أنه كان تلميذاً صبيًّا بمدرسة أسوان فى العهد الذى كانت المفاضلة بين شيئين هى المحور الغالب على موضوعات الإنشاء فى أيامه بمدرسة أسوان . فكان من عرام شخصيته يختار أضعف الجانبين حتى اختار الجهل مرة فى مفاضلة بينه وبين العلم ! وهو الذى كانت أول قصيدة نظمها فى حياته — كان وقتئذ فى التاسعة من عمره — قصيدة مدح بها العلوم ومن قوله فيها :

علمُ الحساب له مَزايا جمَّةٌ ... وبه يزيد المرء فى العرفان
والنحو قَنطرةُ العلوم جميعها ... ومبينٌ غامضها وخير لسان
وكذلك الجغرافية تهدى الفتى ... لمسالك البلدان والوديان
وإذا عرفتَ لسانَ قوم يا فتى ... نلتَ الأمانَ به وأى بيَان

المسألة إذن شدة إحساس بالقدرة وطاقة التفوق بغير معين .

ومن كتاب (أنا) نتأمل لمحات من شخصية العقاد .

لم يكن العقاد يتشاءم من شيء فى الحياة بل كان يتحدى الشؤم فى كل صورة من الصور التى اصطلح الناس عليها ، فاحتفظ فوق مكتبه بتمثال للبومة المضطهدة المرمية بالشؤم ، واتخذ داراً برقم ١٣ المزعوم نحسه ، حتى حين قرر بناء منزله بأسوان شرع فيه يوم ١٣ مارس وقسم كتبه ١٣ قسماً وكتب عن ابن الرومى المقرون بالشؤم .

ومن الغريب حقًّا أنه دفن فى أسوان يوم ١٣ مارس .

فهل أثبت الرقم المشئوم وجوده آخر المطاف ؟

• • •

يقول لودفيج فى معرض حديثه عن نابليون .

(إذا أردنا أن نصور حياة حافلة كحياة هذا الرجل لم يكن لنا بد من أن نصبغها بألوانه ، فلا غنى للكاتب عن الرجوع إلى كلام صاحب الترجمة ولا خوف من الإفراط فى هذا الصدد مهما أفرط ، إذ الواقع أن كل إنسان أقدر على شرح نفسه من أى إنسان غيره)(١).

ومن هنا نستطيع أن نعتمد على كتاب العقاد (أنا) فى التعريف إليه أو التحدث عنه أو الترجمة له ولو من باب تفصيل المجمل أو توضيح التوضيح كما يقول النحاة . . .

ومن كتاب (أنا) : (لم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء بل شعرت كثيراً بصغرهم ، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات . .

وأنا أعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والإسكندر المقدونى بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وإن البطل الذى يخوض الحرب ذوداً عن الحق والعقيدة أكرم جداً من كل بطل يقتحم الحروب ليقال إنه دوخ الأمم وفتح البلدان)(٢).

---

(١) ساعات بين الكتب جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ .

لأنه كان فى نفسه ، وبنفسه ، أغنى الأغنياء ، وغنيًا عن الأغنياء .

* * *

وكان العقاد القوى ، قوى الشخصية وقوى الحجة وقوى الإعجاب وقوى الخصومة ، أضعف الناس أمام ضحايا الألم والقهر. فقد وقع نظره أثناء سجنه يوماً على جلاد يهوى بسوطه على ظهر سجين ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين . . فعاد إلى مكانه فى السجن باكياً ، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة ، ومكث مريضاً مدة أسبوع كامل ، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها وظلت صورة الدم على ظهر السجين تخايل عينيه ، واستمرت أنات الرجل تدوى فى أذنيه ، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتى ذنباً استحق عليه العذاب .

هذا هو العقاد الذى قال من جهلوه إنه قاس لأنه لا يرحم ضعفهم الفنى ، حين رق ورحم وشجى أمام كل ضعف سواه .

* * *

كان عزيزاً حتى فيما لا حيلة فيه ولا مجال لكرامة أن تختار . ومن هذا إيثاره الموت نفسه على المرض لو جاز أن يسلك الموت فيا يستحق الإيثار . ومن قوله فى هذا :

(إذا فاجأنى الموت فى وقت من الأوقات ، فإننى أصافحه ولا أخافه بقدر ما أخاف المرض ، فالمرض ألم مذل لا يحتمل لكن الموت ينهى كل شىء) .

حتى فى المواقف التى يجنح فيها الفرد إلى المداهنة **والملاينة تندفع شخصية**

العقاد تجاهر بالرأى الصريح . . والصحيح . . مسقطة من اعتبارها حساب المكسب والخسارة فى هذا الاختيار .

ومن هذا أن العقاد أيام البرلمان كان يعلن فى كل دائرة تقدم فيها أنه لن يقبل الوساطة فى مسألة شخصية ، إلا أن تكون تقريراً لحق أو دفعاً لمظلمة .

شخصية لها عرام . لقد أقسم (العقاد) لزعيم الوفد فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير إلى قلمه الرصاص الذى كان يكتب به مقالاته – وكان يحمله وقت جداله معه فى بيته بالإسكندرية – ألا ينتهى هذا القلم حتى تنتهى وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد صدق فما كاد يمضى اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة أشبه ما تكون بالإقالة وتولت الحكم بعدها وزارة (على ماهر باشا)[١] .

دائماً اعتزازه بالقلم مع سائر الحكام ، فمنذ حمله إلى أن ودعه قبل سفره إلى أسوان للمرة الأخيرة ، لم يمالئ حاكماً قط ولم يداهن حاكماً قط . إن أقصى ما يطمع فيه الحاكم المستبد ، أو يطمح إليه ، من العقاد : السكوت . وإنه لأمنية الحاكمين من صاحب الرأى الحر والقلم الجهير

وفى باب الأنفة تروى عن العقاد هذه القصة :

كان فريق من كبار رجال الصحافة أعضاء فى مجلس الشيوخ . وأريد الإنعام عليهم بالباشوية ، لكن لما كان القانون يحرم الإنعام برتب أو نياشين على أعضاء البرلمان ، اشترط عليهم أن يستقيلوا من المجلس ليظفروا بالإنعام

---

(١) حياة قلم ص ١٨ .

السامى ثم يعاد تعيينهم فى المجلس !

قبلت الأغلبية الاستقالة من عضوية المجلس لتظفر بالباشوية ومنهم خليل ثابت وأنطون الجميل وآخرون .

عضو واحد فقط رفض الباشوية . . **هو العقاد !**

وحدث عقب الإفراج عن العقاد من السجن أن أوفد إليه القصر من يعرض عليه منصب مدير الإدارة العربية فى القصر بكافة مزاياها فرفض .

ثم بعد فترة — عرض على العقاد منصب مدير دار الكتب فرفض . وارتقى العرض إلى مدير الجامعة فرفض .

وفى عهد تال عرضت عليه الوزارة فى الائتلاف الدستورى السعدى فرفض وقال إنه لا يرضى عن قلمه بديلاً !

ويروى عن الأستاذ العقاد أن أحمد حسنين أبلغه أن (فاروق) أصدر أمره بإعادة كتابة اسم العقاد فى جدول الانتخابات . وكانت الوزارة الوفدية قد حذفته .

وفى كياسة رجل البلاط قال أحمد حسنين : إن الملك يقدر العقاد ويرى أنه كاتب كبير لا ينبغى إغفاله . . .

وينتظر أحمد حسنين فى تشوف جواب العقاد على هذا « التقدير الملكى » فيجيب العقاد ولكن بقوله :

إن قول فاروق إن عباس العقاد كاتب كبير شيء لا يقدم ولا يؤخر ، أما أن يقول العقاد إن فاروق ملك كبير فشيء آخر ! وهو ما لم أقله حتى الآن .

سئل العقاد يوماً لماذا هو ديمقراطى ؟ فأجاب : (**لأننى لست بالمذل ولست بالذليل** ولست بالمؤمن بصلاحية الاستبداد فى جميع الأحوال . وهذه هى الأسباب التى تبغض إلى الاستبداد حيث كان ، وتحبب إلى الديمقراطية حيث كانت ولوكانت بين أناس لا يستحقونها أحسن استحقاق .

فالحرية فى أقبح أوصافها خير من الاستبداد . وقد شبع العالم من عيوب الحكم المطلق ألوفاً بعد ألوف من السنين)[١].

وكان سعد زغلول فى قمة زهوته يعمل للعقاد ألف حساب.ومن ذلك أنه كان لا يقترح عليه الكتابة أو الكف عنها . كان يتنسم رأيه بطرح الموضوع للمناقشة كمن يجس النبض فإذا وقف على رأيه ورآه يلتقى معه من تلقاء نفسه أفصح عن غرضه الحقيقى وتمنى عليه أن يعالج الموضوع .

يرويها العقاد فى مجال ترحيبه بالاقتراح الأدبى يأتى من المجلات الأدبية وأصحابها لأنهم كما يقول أدرى بحاجة صحفهم إلى ألوان الموضوعات ، حين كان يرفض كل اقتراح سياسى بالكتابة فى مسألة من مسائل السياسة .

وقد فسر العقاد شبهة الكبرياء فإذا بها ترفع ، هو بعض وفائه للقيم الإنسانية ، وعطائه للحياة الأدبية ، وصنيعه لكرامة الأدب والأدباء .

ومن اعترافات العقاد فى كتاب أنا :

(أعترف بأننى لا أطيق التواضع الكاذب الذى هو رياء فى المتكلم وغفلة فى السامع . فإذا بخسنى الباخسون حقًّا فدعواى إذن أمام ضميرى

---

(١) حياة قلم ص ٢٢ .

لا يزعزعها إجماع الخافقين .

أعترف بأنى أحب الشهرة والخلود ، ولكننى أعترف كذلك بأنى لا أطلبهما بثمن بخس من كرامتى ، وأنى إذا أحسست أن إنساناً يمتن على بشهادة يبذلها أو شهادة يمنعها فلا نصيب له عندى غير التحدى الذى يذهب به إلى الحائط . ولتذهب الشهرة وليذهب الخـــلود معها إلى الشيطان)(١) .

ألوف تبلغ به الألفة حد الضعف أمام العادة فلا يقدم على التبديل إلا بعد عناء طويل . ومثل من أمثلة أن البيت الذى كان يسكنه قد تغير له أربعة ملاك وهو الساكن فيه لم يتغير .

وأنه كان فى مصر الجديدة وكان حلاقه فى شارع محمد على لأنه من سنين كان يسكن هناك .

يلتقى عنده المحافظة والتجديد من أثر نشأته فى أسوان (وهى أعرق مدينة بين مدن مصر القديمة بموروثاتها التى لا تبلى وهى فى الوقت نفسه مدينة أوربية فى الشتاء أوكانت كذلك يوم نشأ نشأته الأولى فأوربا كلها كانت تتراءى هناك كل شتاء بملاهيها وأزيائها وعاداتها ومؤلفاتها وفنونها واختلاف أقوامها)(٢) .

وكذلك كان بيت العقاد بالقاهرة فيه أحدث كتاب وأحدث ما يعين على استجلاء فن كالتليفزيون . . . والريكوردر . وفيه أيضاً أقدم ما عرفت

---

(١) حياة قلم ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٧ .

البيوت من آلات خارج دائرة الفنون .

أما بيته فى أسوان فقد رأيت الحجرة الفسيحة التى كان العقاد يعقد بها ندواته فى أسوان عصر الاثنين والجمعة من كل أسبوع . ورأيت المقعد الذى كان يجلس عليه والناس من حوله ، الواقفون يربون أضعافاً على الجالسين إلى جانبه والجالسين بين يديه . كان العقاد يحل بأسوان فما يكاد الناس يتسامعون بمقدمه حتى تتدفق جموعهم على مجلسه ، وتهرع وفودهم إلى داره فلا يبقى فى الطابق السفلى موضع لقدم . . إنه ابن أسوان وأبوها فكل من فيها يدعوه « أبويا العجاد » .

ورأيت حجرة العقاد الخاصة وقد ترك فيها كل شيء كما خلفه آخر مرة . . ملابسه معلقة وعصاه . . كل شيء يبدو منتظراً كأنه قادم إليه من القاهرة . وما درى أنه سافر منها إلى أسوان منذ أمد قريب . . بعيد . .

والدور العلوى مخصص للعقاد حين كان يسافر إلى أسوان . وتستطيع أن تكتشف هذا بنفسك . فكل شيء مرتفع القامة مثله . رفوف الزجاج على الأحواض . . ومراياها . . الأزرار فى الجدران . . الشماعات (المشاجب) ، الأثاث ، حتى الأدوات ضخمة غير نظائرها عند الناس . . وابتسمت من بين دموعى . . لقد لحقت عملقته الأشياء التى تنتمى إليه . .

واستوقفنى فى بيت أسوان صور أسوان . . كل مَعْلَمٍ من معالم أسوان تضمه لوحة زيتية . فالخزان والمقياس وأنس الوجود وجزيرة النباتات . . إلى هذا الحد كان « أبويا العجاد » متعلقاً بمسقط رأسه . كما كان مسقط رأسه متعلقاً به إذا أخذنا بدلالة الصور هنا . فى كل حجرة صورة للعقاد

وفى كل ردهة صورة . . للعقاد . . وكم من صورة رسمها له أو رسمه فيها الفنان صلاح طاهر ، إن مدرسة العقاد فيها الرسام كصلاح طاهر والموسيقى كالشجاعى أليست جامعة ؟

وبين الصور ، صورة كان العقاد يعتز بها . . صورة زيتية من رسم صلاح طاهر أيضاً . إنها صورة طفلة نائمة أناملها الصغيرة البضة تمسك أطراف الغطاء ودوائر شعرها المخملى تلق على وسادتها البيضاء ظلالاً رقيقة مثلها ، ووجهها كله تغسل براءته وطهره بحراً من آثام العالم . . كان العقاد المهيب يحب الطفولة .

وقد سمعت قصة غريبة صحت أم لم تصح فإن لها دلالة كبيرة على أعماق . . صاحبها . . روى لى ابن أخيه أن العقاد رجع من جنازة ابنه صفيّه المازنى وقد اتخذت صرامته قراراً لا يحيد كالعادة وهو ألا يتزوج لكى لا يقف هذا الموقف الجريح .. لكى لا تدفن نفسُه نفسَه .. لكى لا يوسد الثرى بضعةً منه أو أعزّ شىء فيه . وظل فترة يردد : كيف أحتمل المازنى دفن ابنته ؟ كيف ؟ وكثيراً ما سئل العقاد عن سر عزوبته فكان يصنع للسائلين الجواب .

كان يحب الأطفال (إنهم معلمون من الطراز الأول . . لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة فى نفوسهم بالخط البارز الذى تقرأه لأول نظرة ، وهى فى نفوس الكبار ضامرة أو مصحفة أو ملتبسة بوشى الرياء وزركشة العرف وزخارف التكلف والتمويه .

إن معلمينا الصغار لا يكتمون شيئاً وكل ما كتموه أبرزوه وضاعفوا

إبرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنساني من الطفل فما هو بمستفيد شيئاً من علوم الكبار ولو كانوا من كبار العلماء)[١].

(وجاهل بهذا الخطب من يحسب أن الحزن على الصغير أهون من الحزن على الكبير .

إذ الواقع أن الحزن على الكبار قد يهون عند الحزن على هؤلاء الصغار ؛ لأنك تحزن عليهم بمقدار تعويلهم عليك ، ومقدار الرجاء فى غدهم وغدهم طويل مفتوح لآمال الخيال ، ونظرتهم إليك وهم مرضى على يديك تطالبك بالمعجزات وتعجزك بعد ذلك عن الصبر على ذلك الأمل الذى ضاع فيك وضاع فيهم ، فلا عزاء .

متعة نفيسة وثمن غال ، ومما زهدني فى اقتناء المتعة النفيسة علمي بغلو الثمن ولا إخالني مع هذا نجوت مما ابتليت به فى طائفة من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء)[٢] .

فنان عاطفي حتى ليبكيه الأداء المتقن أو المشهد الدرامي ومن ذكرياته أنه بكى فى أول فيلم أجنبي ناطق ، كان يمثله الممثل القديم (آل جونسون) . وكان مع آل جونسون طفل صغير يمثل دور الطفل الذى حرم من أمه وظل هدفاً للإهمال حتى مات .

بكى ولم يستطع النوم فى تلك الليلة .

عاطفى يتعلق بوالدته حتى فى شيخوخته واستغنائه المفروغ منه عن

(١) حياة قلم ص ١٧١ .

(٢) حياة قلم ص ١٧٤ .

الرعاية والحدب . ولكنه كان أول ما يفعله عندما يزور أسوان أن يهرع على أثر نزوله من القطار إلى غرفتها ويسكن إليها فلما توفيت لم يدخل غرفتها ما عاش كيلا يراها خالية منها .

إنه يذكرني بفريد الدين العطار الذى كان يقول عن أمه وهو وزير (هذه السيدة التى هى أوهى من خيوط العنكبوت كانت لى حصناً) .

(حتى الشوارع التى كنت أغشاها مع صديقى المازنى – رحمه الله – لم أستطع أن أغشاها بعد مماته . وصرت أتجنب ما يذكرني بفجيعتى فيه حتى لا أحزن من جديد ! !)[1] .

فنان يستهويه الجمال . وللعقاد فى وصف النهار والفرح بالنور كلمات ما كتبت عن العقاد مرة إلا تاقت نفسى إلى ترديدها .

(كان النهار بساماً ، مدلاً بشمسه ، مزهواً بنوره ، كأنما يحس روعته فى الأنظار وبهجته فى الأرواح وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما يتوهج الوجه الصبوح تحت لمحات الأحداق . كان نهاراً مبتكراً عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم . خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلألأ فى فضائه للمرة الأولى . . وهل هنالك فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور فى أبعد مكان من الفضاء وفى أبعد فترة من الزمان ؟ ها هنا شىء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين)[2] .

---

(١) حياة قلم ص ٣٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧٧ .

وهو يحب النور كجيتى الذى مات (وهو يطلب المزيد من النور ، كما يقول العقاد فى كتابه عنه ، ويهتف بمن حوله وهو يجود بنفسه أن « افتحوا النافذة ليدخل النور »)[١] .

وكان للعقاد دستور حياة .

(فلى وقت للعمل ، ولى وقت للرياضة ، ولى يوم كل أسبوع أكف فيه عن كل عمل وكل قراءة حتى مطالعة الصحف وفض رسائل البريد ، ولى مواعيد للطعام والنوم لا تختل فى يوم ، ولى قاعدة هامة تشمل العمل والرياضة والطعام والجد واللهو والبطالة وهى التوسط بين الإفراط . . والتفريط) .

ويراه الدكتور عثمان أمين متأثراً بكانط فى نظريته المعرفة ومذهب الأخلاق . وما قاله العقاد فى هذين لا يستلزم بالضرورة تبعية أو متابعة . فمذهب العقاد فى الأخلاق كما يقول الدكتور عثمان أمين نفسه يعتمد (على أخلاق الضمير والفطرة السليمة ، أخلاق الصراحة والوفاء والإخاء . ولاسبيل إلى إنكار هذه الأخلاق ما دامت تعبر عن طبيعة الإنسان ووجوده) .

وقصة ابن طفيل « حى بن يقظان » تزكى اتجاه الفطرة السليمة فى مسار خلقى سليم بدون كانط أو نظريات .

أما عن علاقة الإنسان بالكون فإن الإسلام حددها حين قال بعد الدعوة الموسعة إلى التأمل والتفكير والتعلم : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

إلا قليلا

---

(١) حياة قلم ص ٢٧٧ .

هنا الدقة تستريح .

فى الأساطير الإسلامية أن الله أخبر موسى أنه وهب « الخضر » من لدنه علماً . فذهب موسى يبحث عن الخضر حتى وجده فى كهف وأمامه شبه بركة صغيرة من الماء . وسأله موسى :

— هل أعطاك الله علماً ؟

— حمداً له فى كل حال .

وفى هذه الأثناء حط طائر وحسا حسوة من الماء . وهنا التفت الخضر إلى موسى وقال له :

ما عندى من العلم فى حجم ماملأ فم هذا الطائر من الماء .

والقصة ترمز إلى تواضع العالم الحق . . وإلى أن الإنسان ماأوتى من العلم إلا قليلا .

إن T. W. A لاتقاس بالطائر الصغير المهاجر الذى يطير مسافات شاسعة على جناحيه .

هذا هو معجزة القوة .

كم من ملايين الخلايا فى جسم الإنسان تعمل بنظام محسوب ؟

لقد استطاع الإنسان أن يصل إلى القمر ولكنه لم يستطع أن يخلق خلية حية .

ماهى الأرض التى يعيش عليها الإنسان ويتصارع فوقها ويزدهيه النصر فى هذا الصراع ، إلى جانب الشمس ؟ ذرة من غبار فى مدينة الشمس لو أن الشمس مدينة .

ماهذا كله مجتمعاً ومتفرقاً بالنسبة إلى الله ؟

حدث فى الانتخابات الأمريكية أن سأل رجل ، عالماً من علماء الفضاء : هل هناك كواكب أخرى مثل الأرض ؟ وهل هناك شموس أخرى ؟ فقال العالم : نعم .

قال الرجل : إذن لايهمنى من الذى نجح أو سقط .

والقصة من عالم الواقع ترمز إلى تفاهة الاهتمامات اليومية صغيرة أم كبيرة .

إن إنسان العصر يتحدث كثيراً عن إنجازاته العلمية حتى سمى عصره ، عصر التكنولوجيا . . . . هذا العصر نفسه له علامة أخرى : **التلوث** .

هذا التلوث مؤشر يدعو الإنسان أن يخفف صلفه وغروره .

لقد أبدع الإنسان الصناعة فلوث دخانها الجو .

وفى الزراعة ، قاوم الآفات فلوث النبات .

وفى التجارة لوث الأفكار بالإعلان .

وفى السياسة ، لوث ضمير الإنسان ، وهدّم القيم ، وخرّب البشر ، وقد آن الأوان لتنظيف بيته أى بيئته أى دنياه .

ليست دعوة ضد الصناعة والزراعة والتجارة . . .

محال . . . ولكنها دعوة إلى الوعى بأنه ماأوتى من العلم إلا قليلا . . ودعوة إلى الإيمان بأنه فوق كل ذى علم عليم ، وبأنه لم يخرق الأرض ولم يبلغ الجبال طولا . . . وإلى أن هناك خالقاً أكبر وأقدر وأعلم وأحكم . . كل شىء عنده قدره تقديراً . . .

يقول الأستاذ العقاد : **إن العقل لايفهم حقيقة الشىء فى ذاته ، فليس**

أمامنا إلا أن نفترض أحد فرضين ، فإما ألا يكون هناك حقيقة تفهم ، وإما أن العقل يضع نفسه في غير موضعه حين يتصدى لاستكناه تلك الحقائق . والفرض الأول بعيد التصديق ، فلم يبق غير أن العقل غير منوط بفهم كل صلة بين الإنسان وهذا الكون الذى نشأ منه ، وأن الصلة موجودة وإن لم تكن معقولة .

إن الإيمان ليس الشهادتين . . إنه عملية صعبة . . إنه اتحاد بالكون . . استماع إلى المعزوفة الكبرى والمايستر و الأكبر والأقدر والأعظم .

وينفتح القلب ويشرب النغم

وتتوهج الروح إذ تلمسها الشرارة المقدسة

ويبصر الإنسان بعد أن رأى .

إن الحضارة هي وصول الذات إلى مرتقى عالٍ من التوحيد والتكامل ، ثم ممارستها الحياة انطلاقاً من هذا الأفق كالوردة الكونية . ولعلها سميت كذلك لأنها تمثل خروج النفس من الفوضى الداخلية إلى كونية الكون .

إن شدة اهتمام الغرب بعلم النفس مؤشر إلى معاناته النفسية من أمراض العصر . . من أمراض حضارته الصناعية العقلانية . . ولسنا ضد العقلانية ولكننا نؤمن بالتكامل . . أن يكون الإنسان عقله وقلبه وروحه وجسمه كلا واحداً لا يتجزأ .

يقول الأستاذ العقاد : لن ترى الكون حق رؤيته وأنت تحاول الخروج منه ، والانفصال عنه ، إنما تدرك حقيقة الكون وأنت « بعضه » أى وأنت متأثر به مؤثر فيه ، متصل بكل ما فيه من سر وجهر وسرور وألم . . إنما تدرك

حقيقة الكون المقدورة لك ، وهو جسم حي يعاطفك وتعاطفه وتعطيه وتأخذ منه . ولن تدركها ألبتة وهو جثة ميتة على مائدة التشريح تُعمِل فيها المبضع وتهيئها للدفن في التراب .]

وهكذا نرى العقاد المولع بالمعرفة فى فروع شتى ، الموكل بالمنطق والقياس والتحديد العلمى ، مدركا لجلال اللامحدود ، مؤمنا بخالق الكون الإيمان الواسع العميق البصير ، مسلماً حين يقرر محدودية العقل ، بأن الإنسان ما أوتى من العلم إلا قليلا ، متكاملا بالمعنى الحضارى للتكامل الذى يلتقى فيه العقل والقلب والرأى والضمير .

نعود إلى حديث العقاد :

(وقبل ذلك كله كانت لى شيخوخة فى مقتبل الشباب .

ولم يخل شبابي من الشيخوخة ، فمن الحق ألا تخلو شيخوختى من الشباب)(١) .

وحين ترهب فى محراب الفكر وجد من يقلب الحسنة النادرة ، سيئة ! فزعمه قوم زاهداً فى الحياة .

وما أحب الكتب إلا لأنه يهوى الحياة مشغوفاً بها صباً (إننى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى . ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة . ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد . ومهما يتنقل فى البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل فى مكانين ، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات فى عمر واحد ،

---

(١) حياة قلم ص ١٦٠ .

ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرآتين)[١].

ومن الطريف أنه حتى الجنة لم يستطع تصورها خالية من الكتب . فقد تخيل الأستاذ توفيق الحكيم فى بعض كتبه ، العقاد وقد دخل الجنة فلم يلبث أن أخذ يطوف بين أرجائها عسى أن يرى واجهة مكتبة يقف أمامها ويتأمل عناوين الكتب فيها ، فلما طال به المطاف ولم يجد مكتبة ولا كتباً ضجر منها وطفق يقول : ما هذا ؟ جنة بغير كتب ؟) .

وهنا ابتسم العقاد أو لعله ضحك ضحكته المجلجلة وقال :

صديقنا الحكيم لم يبالغ فى تخيله لأننى فعلاً لا أستطيع أن أعيش فى جنة لا أطلع فيها وليس من الضرورى أن أقرأ فى كتاب .

يقصد بالعين . . بالسمع . . بالشعور . . بالملاحظة . . بالتعمق . . بالاستشفاف . . وسائل كثيرة للاطلاع غير القراءة .

ويسأل العقاد كالمستغرب : لماذا لا نطلع فى الجنة ؟

يجب أن نطلع فى الجنة قبل غيرها لأن المكان الذى تسكنه وتحب أن تسكنه هو أحق الأمكنة أن تطلع عليه وتعرف كل ما قيل فيه ، وكل ما خطر بالبال عنه ، وكل ما خامر به النفوس غير نفسك من خوالج الغبطة والشوق والرغبة والاستطلاع .

يجب أن نطلع فى الجنة لأن الساعة الحاضرة فيها لا تكفينا ومن حقها علينا أن نعرفها ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً ، وأن نحيط فيها بشعورنا

---

(١) المرجع نفسه ١١١ .

وشعور الآخرين الذين اختبروها غير خبرتنا وشهدوا منها غير ما شهدناه .

فإن لم تكن لنا وسيلة إلى ذلك غير الكتاب، فليكن الكتاب فى الجنة. ولا يعقل أن تنقص الجنة حيث تكمل المدن العامرة فى هذه الدنيا(١) .

وفى حديثه عن مقاييس الشباب بين قائل بمقياس الشعور، وقائل بمقياس القلب والهوى، وقائل بمقياس الهمة والطموح، كان المقياس الواحد لدى العقاد الذى يقيس به جهوده فى جميع أدوار حياته هو النهم إلى المعرفة .

ولكن لا ضير فالعقاد نفسه كان لا يبالى سخط الساخطين لأنه كان يعلم (أن خطأ الكثيرين جائز وأن سخريتهم لا تضير فلم أحفل بتلك السخرية، ولعلى بالغت فى قلة الاحتفال بها « وأخذت راحتى » جداً فى بسط رجلى حيث أشاء)(٢) .

وهو هنا يشير إلى قصة أبى حنيفة وكان كما قيل يبسط رجله فى حلقة الدرس لأنه لم يكن يستطيع أن يثنيها من مرض أو من إعياء . فأقبل على درسه ذات يوم شيخ غزير اللحية وقور المشية هابه أبو حنيفة فثنى رجله على ألم ثم أخذ فى درسه عن موعد صلاة الصبح ، فإذا بالشيخ يسأل : (وما العمل إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ قال أبو حنيفة : « العمل أن أبا حنيفة يبسط رجله ويحمد الله ») .

وقف العقاد فى حياته كالطود الأشم فى وجه العواصف والرياح، ومن

---

(١) حياة قلم ص ٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٨ – ١٣٩ .

العواصف ما حاول أن يسفى عليه التراب،أو يكيل له السباب. ولكنه فى ثبات الراسخ الواثق من نفسه صدها بوقفته ، أوردها خائبة لمناعته . وفى كل مرة تسكن الضجات وتخفت الأصوات ليعلو صوته وحده ، حتى وهو فى صمت الموت وهم فى صخب الحياة !

لقد حارب العقاد الطغيان وحارب الفوضى .

لقد حارب رءوس الأموال وحارب مذاهب الهدم والبغضاء .

لقد حارب التبشير وحارب التقليد الأعمى والدجل المريب باسم الدين .

لقد حارب الجمود والرجعية ، وحارب الإنكار والجحود .

لقد حارب الأحزاب وحارب الملوك .

لقد حارب هتلر ونابليون وحارب المستعمرين فى صفوف الديمقراطيين .

لقد حارب أعداء الأدب المسمى بالقديم وحارب أصدقاء الأدب المسمى بالجديد .

لقد حارب الصهيونية وحارب النازية أكبر أعداء الصهيونية .

لقد حارب جميع هؤلاء فالتقى على محاربته أناس من جميع هؤلاء صهيونى إلى جانب نازى ، إلى جانب فوضوى ، إلى جانب رجعى إلى جانب ملحد ، إلى جانب حامل اللحية والعَذَبة باسم الدين ، إلى جانب الماركسى من اليسار والمبشر من اليمين .

ولكن لا ضير مرة أخرى فقد كان العقاد يدعو الله ألا يحرمه من عداوة مدع أو دخيل على حرم المعرفة وحرمتها ، نكرانه للفضل على قدر شعوره بعرفان غيره . . وكفرانه بالحق على قدر صواب المحق ، لا على قدر خطئه .

فإن الذى لا صواب له يكفى الحاقدين مئونة النقمة عليه،واللجاجة فى مذمة عمله وبخس جهوده واجتهاده[١] .

سئل العقاد : هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة ؟

فكان جوابه : (بلغت فيما أعتقد غاية ما يستطاع فى بيئتنا العربية ولم أبلغ الغاية التى رسمتها أمامى فى مقتبل حياتى ولا قريباً من الغاية . وإذا قدرت ما صبوت إليه مائة فى المائة ، فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين)[٢] .

بعد كل هذا العطاء يرى العقاد أنه لم يبلغ العشرين أو الثلاثين فى المائة مما كان يصبو إليه . .

وسئل العقاد ما الذى يتمنى بعد السبعين .

فكان جوابه (لئن تمنيت شيئاً بعد السبعين لأتمنين أن أعيش فلا أعيش عبثاً ولا فضولاً ، وأن أعيش كما عشت بحمد الله على الدوام أحقاباً وأحقاباً إلى الأمام فيقول الناس اليوم ما كنت أقوله قبل عشرات الأعوام فذلك هو العمر الذى أحتسبه سلفاً وأعيشه قبل حينه فلا يكلفنى انتظاره إلى الختام)[٣] .

وكان له ما أراده فلم يعش يوماً واحداً عبثاً ، أو عبثاً ، ولم يعش يوماً واحداً فضولاً .

غالنا الردى فيه فانتزع منا والكتاب إلى جانبه ، والقلم إلى جانب

---

(١) حياة قلم ص ١٦٧ .   (٢) كتاب أنا ص ١٣ .

(٣) كتاب أنا ص ٢٦٤ .

الكتاب . وعشنا بعده نردد اليوم ما كان يقوله قبل عشرات الأعوام . وسيظل هذا شأننا معه على الأيام . جيلنا على الأقل .

أقول غالنا الردي فيه لا تدبيج كاتب أو صناعة إنشاء ، ولكنى أقولها وبين يدىّ خطاب أرسله مصرى بسيط من غمار الشعب ، إلى الأستاذ العقاد يقول فيه :

أنا الموقع أدناه ببصمة يدى وتوقيعى يوسف السيد غانم بطاقتى الشخصية رقم ٦٧٢ كرموز .

قد تنازلت عن دمى الذى يجرى فى عروقى تحت تصرف الأستاذ عباس محمود العقاد وليس بكثير أن أتنازل عن حياتى لأننا جميعاً مدينون لك بحياتنا) .

(إمضاء)

وقيمة هذه الكلمة المخلصة الطيبة تكمن فى صدورها عن أحد أفراد هذا الشعب النبيل . . فى صدورها عن رجل بسيط لا يبغى بها منفعة أو جاهاً أو مالاً . . وهل كان العقاد يملك هذا ليعطيه ؟ إن أنزه الناس أولئك الذين يكبرون العقاد لأنهم يكبرونه باعتباره قيمة كبرى وحسب ، ومعنى جامعاً .

ووددت أن أرى المصرى الذى تقدم ليفتدى العقاد . وسافرت إلى الإسكندرية وراء دلالة من يكون .

وهناك دلنى عليه بسطاء آخرون من قومنا كرماء . فقد كانوا يعرفونه بحبه للعقاد . . . وآية هذا عندهم أن الرجل يكتب لهم العرائض . . أليس

هذا دليل فصاحة واطلاع ؟

ما أطيبهم . . وما أحبهم إلىّ . .

وبلغت داره . . دار؟ إنها لا تزيد عن حجرة متواضعة .

وفى ركن من الحجرة الصغيرة منضدة خشب غطيت بورق الصحف رصت فوقها كتب الأستاذ العقاد وقد جلدت تجليداً شعبياً ولكنه يصور حفاوة صاحبه بصاحب هذه العبقريات .

أما مقالات العقاد فقد نسخها الرجل فى كراسة وجمع كثيراً منها فى ملف ! ! وأطلعنى الرجل على كتابات أخرى صانها الرجل الطيب فى حقيبة صغيرة كتب عليها (عباس محمود العقاد) .

وصارحت الرجل بمهمتى فأخذ يتدفق فى الكلام كمن يجد رضا نفسه، ويسمع عن ظهر قلب محفوظاته من كتابات العقاد .

وتقطع زوجته حديثه فى سذاجة محببة من أمثالها وتقول كأنها تريد أن تعطينى بدورها إضافة جديدة :

— أتدرين يا ابنتى أنه لم يستطع أحد أن يخبره بموت العقاد إلا أنا ؟ رأيت أولادى جميعاً فى ذهول لا يدرون كيف يلقون إليه بالنبأ ولم أجد لى حيلة إلا الخروج من الكتمان .

وأصغيت إليها أتعجل النتيجة التى لم تصل إليها ببراعتها إلا بعد استطرادات شتى كشأن بنات البلد .

— ماذا كان من شأنه يا أماه ؟

— لا أراك الله مكروهاً يا ابنتى . . ماذا أقول وماذا أدع لقد انكفأ

يبكى بكاء مرًا .

وبما يضحك الثكلى قولها وهيئتها وهى تستعيد قولها له :

— بتبكى ليه ؟

ويحها . . ألا تدرى .

— دعينى أبكيه . . ده اللى علمنى الغلبة والعرائض !

* * *

هكذا كان البسطاء ينزلون العقاد من نفوسهم . فكيف يكون وفاء من علمهم معنى الحياة ومعنى الشرف ومعنى الكرامة ، كرامة الأديب وكرامة الإنسان ؟

ما أكثر ما صنع وما أقل ما صنعناه .

يقول العقاد فى تذكار جيتى :

(من العبقريين من تعرف مداه بكتاب واحد أو قصيدة واحدة لأنه يرتقى إلى أوجه فى بعض أعماله فيأتى بخير ما عنده أو بكل ما عنده . وتعرفه حق عرفانه فلا تحتاج إلى تجربة له بعدها ولا تصيب فى التجربة الجديدة إلا تكراراً لا جديد فيه .

ومنهم من يعطيك جزءاً من عبقرية فى كل جزء من كتاباته ، فبعضها لا يدل على مداها كلها ، وتكرار القراءة فيها ينتهى بك كل يوم إلى جديد ، فلا غنى لك عن التجربة لسبر غورها، والإحاطة بمداها، والحكم عليها فى جميع أحوالها .

وجيتى من هؤلاء العبقريين الذين لا ينبئ قليلهم عن كثيرهم ، لأنه

لم يجمع نفسه فى قطعة واحدة ولا موضوع واحد ، فهو كثير الجوانب كثير التجزئة : الموضوع الواحد عنده لا يدل على كل موضوعاته ، والجزء الصغير لا يدل على جملة الموضوع . فكل فكرة له هى أصغر من الرجل فى جميع أفكاره ، كما أن اليوم الواحد فى غمار أيامه هو أصغر لا محالة من سنيه الثمانين) .

والعقاد أيضاً من هؤلاء العبقريين لتنوع آثاره وموضوعات كتابته وكأنما هى كلها من باب (الفصول) فى كتاب العقاد .

وعن جيتى أيضاً يقول العقاد :

(كان جيتى يغبط صاحبه شيللر لموته فى العقد الخامس من عمره ، فذكراه أبداً مقرونة بذكرى الشباب المحبوب والنضارة الموموقة .

وقلما يصيب المرء فى تمنيه ولو كان من الحكماء . فلو مات جيتى فى سن صاحبه لضاع أكبر نصيبه من الشهرة، وهبطت مكانته فى عيون قومه وعيون سائر الأقوام ، لأن طول عمره أقامه فى الأدب الألماني الحديث مقام الأبوة والرجحان ، وأتاح له أن يتم ما بدأه من الكتب فى أوائل الحياة .

لكنه كان يتمنى ذكرى الشباب على خطأ أو على صواب ، فعزاء له ولا ريب أن تضمه الأرض إليها وهى فى نضرتها وأن تلف ذكراه فى أكفان ربيعها ، فقد مات فى الثاني والعشرين من شهر مارس خاتمة الشتاء ، فلا يذكره الذاكرون إلا بدرت إلى أذهانهم صور الربيع فى مطلع وروده ورياحينه !) .

ألم يكن هذا توقيت الحياة لوداع العقاد ؟

واستقبلته أسوان فى الثانى عشر من شهر مارس حضارة حديثة، كما استقبلت من قديم الأزمان حضارتنا القديمة لتكون الأرض الواعدة والموعودة بالخلود .

سلام عليه .

وسلام عليها

منها خرج وفيها نشأ وإليها يعود .

وسوف يتسع العمران بأسوان ويزداد امتداداً . وسوف يقام فيها للصناعة صروح كثيرة . ولكن أعلى صروحها ، وأغلى ذخائرها ، سيظل ، عباس محمود العقاد بقدر ما تأصل فى نفس الفنان من إعلاء للفكر ، وإجلال للعقل ، واحتفاء بالقلم ، وحب للفن ، وتوقير للعلم ، وولاء للموهبة ووفاء لصاحبها .

سيتغير كل شىء فى أسوان . . الحياة والأفكار والمجتمع ومعالم المدينة حتى الجبال ، ويظل ثابتاً كالعهد به عباس محمود العقاد ؛ لأنه تاريخ والتاريخ دائم ، ولأنه فكر والفكر قائم ، ولأنه قلم والقلم سائر ، ولأنه عصامية من طراز نادر ، ولأنه موهبة على مستوى رفيع ، ولأنه جامعة ، ولأنه شرف لجيله ومفخرة مصرية لسائر الأجيال .

* * *

وبعد ، فللعقاد موقف تجاه النفس وتجاه الآخرين . . . إنسان ثراؤه ليس خارجياً من ثقافة مكتسبة فحسب، ولكن داخلياً من مواهب الذات وقدراتها . شخص هو نفسه موضوع .

العقاد بما كَتَب ، وبما كُتِب عنه ثراء أغنى المكتبة العربية، وسيظل

يغنيها لأن بصمات العقاد على عصره ، لا يستطيع إغفالها كاتب فى الأدب أو النقد سواء وافق العقاد أو خالفه . . مال إليه أو مال عنه . لقد غدا جزءاً من نسيج شخصيتنا الفكرية . . وحسب المرء من وطنه أن يغدو سمة من سماته ، أو قسمة من قسماته ، لا تخطئها عين القريب أو الغريب .

* * *

بقيت كلمة : كان العقاد يبحث فى شخصية شعب المترجم له تماماً كما يبحث فى شخصية العظيم أو العبقرى صاحب الترجمة . فلو طبقنا هذا المنهج فى ترجمة العقاد وتساءلنا ما الذى أخذه العقاد من الشخصية المصرية ؟ وجدنا أكثر من نقطة التقاء . . . أخذ العقاد من مصر :

الشخصية المصرية كيفها النبات إلى حد كبير وإذ عرفت النفس المصرية الزراعة منذ القدم عرفت التجدد والنماء وشق الطريق كما تشق البذرة الأرض فى إيمان ووثوق وهو ما فعله العقاد إذ زرع نفسه وشق طريقه . . وكالبذرة عرف النضج المشغول على مهل . . كالنبات عرف العقاد العمق كالجذور الضاربة فى الأرض ، والارتفاع كالجذوع الصاعدة فى السماء . .

فى مصر كل شيء باق ، مزروع أصلاً . . الفلاح يزرع فى الوادى ، والراهب يزرع نفسه فى الصحراء التى نشأت فيها الرهبنة المصرية بالقراءة والحكمة والنمو بالذات إلى أفق المعنى وسماوات الروح والفكر . لقد ابتدعت مصر الرهبنة فى المسيحية ، كما وضعت أسس التصوف فى الإسلام . . . وأخذ العقاد الخلود من مسيحية مصر وإسلامها معاً . فكما آض آباء الكنيسة المصرية إلى الصحراء احتجاجاً على مجتمع المدينة فى عهد الرومان ،

أخلد العقاد إلى بيته ومعبده ، حين تعب من الأحزاب والمعارك . وكما غدت الخلوة علامة فى طبع مصر ، غدت الخلوة طابعاً فى شخصية العقاد .

وكالراهب خلص العقاد للفن . . . وكالراهب زرع نفسه .

وكالمتصوف عكف العقاد على القلم ومن التصوف كل عكوف على عمل عظيم ، وإذ عرفت مصر الزراعة عرفت الأعماق والأشواق فارتفعت المسلات ثم المآذن طموحاً مشتاقاً يرتاد آفاقاً علوية ما تلبث أن تتجسد على الأرض عمائر ومنابر وعلوماً وفنوناً وحكمة . . . وكم آفاقاً ارتادها طموح العقاد حتى ارتفع شخصاً ، وشخصية ، وكأن بداخله مسلة أو مئذنة من سراوة العمود وتكثيف المجهود وعمق المعنى والدلالة . . . إن حامل المؤهلات متعلم ولكن الثقافة شيء آخر جد بعيد . الثقافة نمو النفس . . خبرة مقطرة . .

وفى العقاد من الشخصية المصرية ، المقاومة إلى حد الفداء إذا اعتقدت فى شيء أنه الحق . . .

وفيه منها الاستعلاء على الأحداث .

وفيه منها طاقة التحدى . . .

وفيه منها حب الفكاهة التى تغسل بحراً من الآلام ؛ إن الدعابة المصرية فيها رقة وصفاء من أثر التاريخ الطويل فى الحضارة ، فالعقاد الذى يحسبونه صارماً عابساً كان يهش للنكتة ويضحك لها ضحكة مجلجلة . . . ويرويها أحياناً كثيرة .

وهكذا تدخلت فى صنعه البيئة واللحظة المعينة .

حتى الصعوبة التى اتهم بها العقاد وهى جدية ، صفة مصرية قديمة

عندما كانت حضارة مصر طرحها فيثاث . . فالنفس المصرية بعطائها نفس أرستقراطية لا بالمعنى المادى أى الثراء الفاحش ، ولكنها أرستقراطية بالثراء العريض فى الفن . . . فى الإدراك . . . فى الحكمة .

ومن العجيب أن غير العارفين بها حين يريدون الراحة . . السهولة . . . يربطون الشعب بالعامية ، حتى يتخففوا هم أنفسهم من قيود الفن ومجاهداته .

والعامية التى أقصدها ، العامية الفكرية لا لغة الحديث فإن لغة الشعب ، البعد عنها ، بُعد عن بواطن ومواطن الحكمة . . .

إن الفكرة الثابتة أو التسرع فى الحكم على الأعمال الفنية ، قتل . . . المتسرع قاتل للفنان وقاتل لنفسه أيضاً حين وكل لسانه بقطع رسائلها عنه . . . إن الثرثرة وإلقاء الأحكام بلا تثبت ، تزحم السكون بالضوضاء فلا يسمع المشاهد ،الأصوات الدقيقة الهامسة الآتية من أعماق النفس متلاقية أو متوازية ولكنها متحابة . . .

وفى العقاد من الشخصية المصرية تمجيد البطولة والمثل الأعلى منذ تعلقت مصر بإيزيس . . وأوزوريس . . وحورس . . ثم الملوك والمعبودات المختلفة .

وشخصيات العقاد التى ترجم لها تمثل نواحى من قوة العقل . . قوة الروح . . قوة الخلق . . قوة المبدأ . . حتى قوة الشر ممثلة فى الشيطان .

هل كانت كتابته عن العظماء صدى لإحساسه بالفرد أو بتفرده من باب جاذبية التشابه ؟

هل كانت كتابته عن الأبطال بتأثير عصر كان يتقدمه أفراد مميزون

تستهوى زعامتهم الجموع فتسير خلفهم فى السياسة أو الفن على السواء ؟

قد يكون هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً ولكنه فى كل صوره يرجحها ينم عن إيمان راجح بالإنسان وقدرته على الوصول إلى قمة . . ولعل مقدمته لعبقرية محمد خير دليل . وكأنه **توماس كارليل العرب** .

ترجمة حياة

الأستاذ عباس محمود العقاد ١٨٨٩ — ١٩٦٤

عصره — بيته — مولده — أبواه — أسوان — طفولته — المرض — مقومات شخصيته (فرديته — عصاميته — ارتفاعه على التقليد) — حربه الشيوعية — ثورته على الشعر العربى التقليدى — مقاييسه الفنية — احترامه للإنسان — العقاد وديوان الأوقاف — ساعات بين الكتب — الإنسان الثانى — مجمع الأحياء — نفوره من الوظائف — تحديه للاستعمار — تاريخه معه — تاريخه فى الصحافة — تاريخه فى التدريس — تاريخه السياسى — حربه الملكية — سجنه — رفضه المناصب — اللغات التى علمها نفسه — أسلوبه — تعدد جوانبه ومواهبه — العقاد شاعراً — العقاد كاتباً — لازماته فى الكتابة — العقاد والمرأة — ظاهرة النور فى أدبه .

قصدت بكتابى هذا عن رجل الفكر والأدب الأستاذ العقاد أن

يكون كتاب رأى . لهذا تأتى ترجمة حياته آخراً لا أولاً على عادة التراجم . . . تأتى تطبيقاً أو تفسيراً لصفات رأيتهـا فيه لا مقدمة لها . . . إنها خطوط مكملة فى صورة العقاد الإنسان . . . وكثيرون يتطلعون إلى مثل هذه الخطوط فى صورة كاتبهم المفضل أو قدوتهم المختارة بين نماذج البطولة والأبطال . . .

وقد سبق أن رسمت له صورة قريبة من هذه عندما أصدرنا ، تلاميذه ومدرسته ، بمناسبة عيده السبعين ، كتاباً . وعنوانها فى ذلك الكتاب كان : (لمحات من حياة العقاد) . وقد « لمحها » فى كتابتهم بعض من كتبوا عنه فى سلسلة اقرأ قبل هذا . . . ويبدو أنهم نسوا الإشارة إليها كما نسوا الإشارة أيضاً إلى ما جاء بكتابي (قمم أدبية) عن العقاد . ولهذا يحسن ورودها هنا ليعم الاطلاع عليها بما تتيحه هذه السلسلة من ذيوع القراءة وتعدد القارئين

* * *

لقد رأى العقاد عظمة شكسبير أعجوبة خارقة ورآه كاتب الأعاجيب وإن لم يكن فى سيرته خبر غريب . ولكن العقاد أعجوبة خارقة فى سيرته وفى أعماله على السواء . فقد ولد شكسبير فى عصر يعين على نماء البذرة الكامنة فى صاحب الموهبة وازدهارها . كان عصر شكسبير فى إنجلترا عصر الفن والمسرح والغناء ، ولكن العقاد ولد فى عصر تكتنفه ، فى مصر ، الظلمات من كل ناحية . ففى السياسة احتلال يكبل الحريات ، وفى الأدب عفن يجمّد الأقلام ، وفى المجتمع ركود فى كل شىء تختنق فيه العبقرية إلا إذا ظاهرتها من نفس صاحبها إرادة ماردة تتحدى وتتخطى وتستعلى على

الأحداث ، والناس ، واليأس ، والجحود ، كما فعل العقاد .

* * *

منيت مصر بالاحتلال سنة ١٨٨٢ وولد عباس محمود العقاد فى ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩ . وكأن مصر بعد الغاشية ولدت من جديد . فإن وليد أسوان كان حدثاً ضخماً فى حياتها هز فيها كل شىء : الأدب والسياسة والوزارات والأحزاب والملك نفسه .

وإذا كان زمن المولد لا ينبئ بمستقبل الوليد،فإن مكان المولد ببيئته الخاصة والعامة يصلح ركيزة للشخصية الفريدة الواعدة . . ركيزة فحسب تمده بالعرق أو الفطرة أو بالعوامل المساعدة بما يعينه على قطع الطريق الملىء بالجلاميد إلى أعلى القمم فى تاريخ الفكر المصرى والأدب المصرى والخلق المصرى والشخصية المصرية بكل ما يدخل فى مضمون هذه الكلمة من وراثات التاريخ،وصفات الإنسان على هذه البقعة من الدنيا ذات الأسرار .

ولد العقاد فى بيت عرف صاحباه بحب العزلة وطول الصمت والتقى . فقد كانت أمه من أسرة تنسب نفسها إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وسواء أصحت هذه النسبة أم لم تصح فإنها تضفى على القائلين بها جواً خاصاً يليق بها . وهذه السيدة التى ولدت لمصر موسوعتها الحية،كانت لا تعرف القراءة والكتابة إلا أنها بالغة الذكاء خاصة فى المسائل الرياضية : حازمة حتى لقد كان الأهل يطلقون عليها (المشدة) وهو مقدم الفعلة الذى يسوقهم بالقوة إلى العمل ، دءوب ، ولوع بالنظافة ، حريصة عليها ، وعن هذه الأم أخذ العقاد الجانب الذهنى كما أخذ ملامح الوجه .

أما والده فقد كان على رزانة فيه ، يؤدى عمله بلا إفراط ذكاء . كان أمين المحفوظات بأسوان . وكانت فى عهدته مستندات أملاك مديريتى إسنا وأسوان اللتين هجرهما أهلهما أثناء حرب الدراويش مخلفين وراءهم أموالهم ثم عادوا . فكان الحصول على سند ملكية يهون لدى صاحبه فى سبيله أى ثمن ، ومع هذا تعفف الرجل فلم يستغل وظيفته ، ومثل هذه الظروف محك لأخلاق الرجال .

وبهذه الصفات المميزة استطاعت هذه الشجرة المباركة أن تمكّن لنفسها فى وادينا العجيب الخصب ، فثبت أصلها فى الأرض وبلغ فرعها السماء بما غذته من مواهب العقل والقلب وصفات الإصرار والصبر ، وسمات التعفف والترفع والإباء حتى اجتمع له من صفاته النوابغ شعوراً بالمناعة يبلغ حد العجب أو الخيال .

* * *

ونشأ العقاد فى مدينة يلتقى فيها الماضى السحيق بالحاضر . فنى أسوان خاصة فى الشتاء تلتقى أحدث صور الحضارة الحديثة بآثار الماضى العريق لا فى المتاحف وحدها بل فى البيوت ، فالحياة هى الحياة والوسائل هى الوسائل كأن كل شيء ثابت فى مكانه لم يتحرك إلا الزمن .

وفى ملتقى الحياتين شب العقاد . فتح عينه الطفلة على الفتاة الباريسية والليدى الإنجليزية ثم المرأة الأسوانية المحجبة حتى ليعز على المرء أن يعرف أمه فى الطريق . وهو وإن لم يعط هذا النقيض أهمية فى طفولته إلا أنه قد لمسه فى سن الوعى وملأ عليه إحساسه . فقد منحه بسطة فى الأفق، كما

أعطاه قابلية الإحساس بسعة الحياة . وطبعه على الاستعداد للتقابل وعدم الإحساس بالتنافر .

ومرة أخرى تظهر مدينة أسوان فى الصورة التى تراها وتقرؤها وتلمسها عيوننا اليوم . فلما كانت مدينة سياحية بل مشتى عالميًّا فقد غصت بالمكتبات لمنفعة السائحين ، وهى بالطبع عامرة بكتب الآثار والتاريخ والقصص والمجلات . فكان العقاد يتردد عليها ويعب منها ما وسعته الطاقة والرغبة . وكان ذا نفس طلعة يندس بين السائحين ويتحدث إليهم ليمرن على الكلام بالإنجليزية . وقد مكن له من طلبته أيضاً المجالس المختلطة التى كان يدعى إليها . فقد كان بعض الأجانب ممن يزورون معالم المدينة يدعون ناظر المدرسة والطلبة المتقدمين ، فتسنى للعقاد فى حداثته أن يجالس صفوة الأجانب رجالاً ونساء .

ولا شك أن الأمر هاله بادئ ذى بدء ولكنه واجه الموقف واستفاد منه .

يقول العقاد عن أسوان فى مذكراته :

«كانت البلدة التى نشأت فيها بلدتى أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشئ فى مثل سنى أن يأوى إلى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر فى كل ما يسمع أو يبصر من الشئون العامة ، بغير تضليل أو تهويل . . وتهب الزوبعة القومية فلا تفاجئنا فى وسط غبارها لتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منها رويداً رويداً فلا تصل إلينا حتى تنكشف على جلاء» . .

يضاف إلى هذا كما يقول العقاد حالتان طارئتان على أسوان — فى ذلك الحين — لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة . هما حملة السودان وبناء الخزان .

فني أثناء حملة السودان كان الحاكم العسكرى ومحافظ المدينة وقاضى المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح طائفة من الإنجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية . وكان كل بيت فيه (ولد من أولاد المدارس) مرجعاً نافعاً لقراءة الأوراق الرسمية أو ترجمة العرائض إلى (الحكام) على حسب الاجتهاد . وكان (نصف الفرنك) نفحة سخية يحصل عليها (الولد) المترجم الذى يستطيع أن يخط فى الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعانى مفهوم بالإشارة أو التخمين . فأما (الولد) الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد فى معاملته إلى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرابة أو الجوار .

أما بناء الخزان فقد جلب إلى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرءون الصحف الافرنجية طوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع إلى النظر فى هذه الصحف وفى صحف السائحين ، فلا يفوتنا (مع تتابع النظر) أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها ، وأن نختطف عبارة هنا وتعليقاً هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح . . . »

(آخر ساعة العدد ١١٩٣ – ١٩٥٧/٩/٤)

* * *

نستطيع أن نقول فى العقاد ما قاله فى كتابه عن برناردشو من أن نشأته فى أسوان (ونشأته فى أسرته ، ونشأته فى أبويه ، ونشأته فى جيله السياسى ، ونشأته فى جيله الثقافى – كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر

حياته ، أو عنصر من عناصر استمداده وعمله فى حياته الفنية والثقافية) .
هذا الفتى الذى صنعته أسوان على عينها رفض طفلاً أن يلبس البنطلون القصير كما رفض وهو فى السابعة من عمره تلميذاً صغيراً أن يدعوه المعلم باسم (عباس حلمى) كما جرت عادة أهل ذلك المعهد الذى كان الطفل فيه لا يذكر اسم أبيه بل يطلق عليه أحد الأسماء التقليدية ، حلمى — صبرى — لطفى — شكرى (على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه فى الأسماع) .

وهكذا عرف الطفل فى العقاد ، الرفض ، مبكراً . عرف الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالذاتية ، هذه الصفات التى رسمت طريق حياته . . وحياتنا بالتطلع إليه،والاستمداد منه،والتأسى به . . . بل لعل موقف طفولته البطولى بالنسبة إلى سن السابعة وبالنسبة إلى الشائع بين لداته مما لم يجز عليه ولم يقبله يفسر قوله عن نفسه صادقاً فى (سارة) (أنه مطبوع على ألا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء أو من الرجال) . وهو جبروت لم يتخل عنه حتى فى السجن ، عالم السدود والقيود ! ! لم يتخل عنه جبروته ورغبة القدرة فى تتبيع الآخرين له ولو كانوا هم الطلقاء ! ! .. دخل العقاد السجن فجعلت نفسه الماردة — وهو ما لم يسمع به من سجناء . (العالم الخارجي جزءاً لاحقاً بالسجن مضافاً إليه) ويرى العقاد تلك الشيمة فى النفس — الإنسانية . والحقيقة أن (الشيمة) لا يقدر عليها إلا نفس العقاد . . هى وحدها التى تستطيع أن (تنقل مركز الكون كله إلى حيث تكون) .

* * *

وفى مطلع حياته كان يقرأ كرفاق صباه صحف عبد الله النديم ، ولكن على طريقته هو (ولفتتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ووجدتنى ذات يوم أقطع الورق قطعاً على قدر المجلة وأعمد إلى مكان العنوان منها فأكتبه متأنقاً وأعارض عنوان « الأستاذ » بعنوان « التلميذ ») . هنا تطل شخصيته . . تطل الذات لتأخذ (موقفاً) فى موقف يغلب فيه التسليم والاتباع .

(أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضاً من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التى تردد صداها زمناً فى البيئات المصرية ، وهى المقالة التى جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثانى والعشرين من السنة الأولى .

فكتبت مقالى الافتتاحى وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم ») .

ومرة أخرى تطل الذات العقادية الشموس فيستشرف إلى أبعد من هذا ولا يرى نفسه تلميذاً فى مدرسة النديم ولا يشعر بأن (الرجل قدوته المختارة بين أمثلة النبوغ التى يتمناها أو بين الشخصيات المثالية التى يجلها ويحب أن ينتمى إليها) .

على أن الرجلين يلتقيان فى أكثر من وجه شبه فكلاهما تعلم صناعة التلغراف ، وكلاهما اشتغل بالتعليم فى مدرسة خيرية ، وكلاهما طورد من البوليس وتنكر مستخفياً .

ولكن الأمر لا يعدو وجوه الشبه التى تصنعها المصادفات أو مقارنات

الكتاب فى معرض التأريخ وكتابة السير . فإن العقاد يمتد امتناعه على الاقتداء فينسحب على غير النديم حتى ممن يفوقونه . فليس بين العظماء السابقين واحداً اتخذ منه العقاد مثله الأعلى على إعجاب بهم وتقدير . وتأثر ، يفرضه ولو بدون وعى ، الإعجاب والتقدير ، خاصة ، فى مطلع حياته حين كان يحتفى بقراءة كارليل ، وماكولى ، وهازلت ، ولى هنت ، وأرنولد وغيرهم من أئمة المقالة فى القرن التاسع عشر . وترك هؤلاء الكتاب انطباعاتهم عليه فترجم عنهم حيناً وترسم نهجهم حيناً آخر فيما كتبه عن أدباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق .

وإذا كان العقاد لا يطيب له أن يكون هناك أشخاص فى حياته يجرى ذكرهم فى قلمه أو يعرض حديثهم على لسانه ، فلعلها من الموافقة التى تلتقى فى الهوى على غير خلاف،أن نذكر فى باب المؤثرات شيئاً يحسب له لا شخصاً يحسب عليه عند الرجحان . والشيء الذى كان له فى حياته مكان أو أثر هو المرض الذى ألم به فى فجر شبابه وإن لم يذكره العقاد ، بل لعله يخصه بإغفال ، ومع هذا يرى له كاتب كالأستاذ محمود تيمور (الأثر الأعظم فى تكوين حياته وإبراز طابعه) — فقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية كى تشبع نهمها إلى القراءة والدرس فى ذلك المعزل .

وكان من أثر الاحتجاز فى صومعة القراءة والدرس أن تمكنت فى خصائص (العقاد) ملكة التأمل فى الحقائق ، والتعمق فى الأفكار ، فاكتست فصوله تلك الصبغة ، من أسلوب رصين وتفكير دقيق ، وإحاطة شاملة

وهذا المرض كان من أثره أن استقر فى قلب (العقاد) حب الحياة والتشبث بها والكفاح فى سبيلها ، فإنه لما واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقاً بالحياة ورغبة فى التمتع بأطايبها ، فكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم . فلم يجمع العقاد مالاً ولم يدخره ، بل أنفقه على فكره ، وعلى نفسه ، وعلى من يلوذ بحماه . وكان من عقبى ذلك الظفر أنه أورثه زهواً وعزة ، وثقة بالنفس ورهافة شعور بالكرامة ، وأذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والإصرار . فتجلى فى حياته وفى إنتاجه هذا اللون من القوة والصراع وصلابة القناة فكان بصفاته الفريدة حدثاً ضخماً فى حياته وفى حياتنا . كان العقاد يذهب إلى رئيس الحكومة ومجلس الوزراء منعقد فيخرج من الاجتماع للقائه فى موعده لأنه يعرف خطر موعد العقاد .

كان دقيق التفكير . . دقيق النظام . . دقيق الموعد . . دعاه نائب قنا ثم تأخر عن استقباله بالمحطة . فلم يغادرها العقاد انتظاراً للقطار العائد . وعبثاً حاول الرجل استرضاءه . فلما أعيته الحيل نقل سرادق الاحتفال إلى المحطة حيث هو .

* * *

وعقيدة احترام الإنسان ، اقترنت فى رأيه وضميره بالكرامة الشخصية ؛ فزهدته بل نفرته من الوظائف الحكومية التى تولاها ، والتى كان سرعان ما يضيق بها . فحين عين بانفسم المالى بادئ الأمر فى مديرية الشرقية ، فكر فى الاستقالة لينشئ صحيفة اختار لها اسم (رجع الصدى) ثم عدل عنها .

وفى الفترة ما بين ١٩١٢ ، ١٩١٤ التى عمل فيها بديوان الأوقاف لم يكن راضياً كل الرضا مع أن عمله فى قلم السكرتارية من ذلك الديوان كان مزيجاً من الصحافة والوظيفة . وكان (ديوان الأوقاف فى تلك الحقبة مجمع الأدباء والشعراء من شيوخ وشبان . كان فيه محمد المويلحى وأحمد الأزهرى صاحب مجلة الأزهر وأحمد الكاشف وعبد الحليم المصرى وعبد العزيز البشرى وحسين الجمل وإخوان هذا الطراز) ومع هذا ما إن فاتح حافظ عوض ، العقاد ، فى الإشراف على صفحة الأدب بصحيفة المؤيد حتى سارع إلى القبول . على أنه لم يلبث أن استقال لسمة من سمات الكرامة فى نظره وتقديره ، وكانت استقالة رابحة فقد خلا بعدها إلى القراءة والتأليف .

ويصف العقاد هذه الفترة بأنها كانت موسماً خصباً حقًّا بثمرات التأليف (لأننى انتهيت من كتاب : « ساعات بين الكتب » فى نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل فى أهم مذاهب الفكر الحديث . وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه السوبرمان . وهذا الكتاب الذى ظهر بعد ذلك باسمه وأعيد طبعه مرات ، لأن « ساعات بين الكتب » التى كتبتها فى أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أوستين صفحة .

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة سميته « الإنسان الثانى » ولم يبق منه كذلك غير صفحات .

وأتممت رسالتى « مجمع الأحياء » تلخيصاً للآراء فى فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ،

وهو الكتاب الوحيد الذى تم ونشرته تماماً بعد تأليفه بفترة وجيزة .

ونظمت فى هذا الموسم الأسوانى أكثر من نصف قصائد الجزء الأول من الديوان. ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لأنها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها فى نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول) .

ولعل كرهه للوظائف وعدم استعداده الطبيعى أو الخلقى لها هو الذى أقنعه بعدم التأهل لها بمؤهلاتها التقليدية من شهادات كانت فى زمانه ، خاصة لا تقصد فى الأعم الأغلب إلا لما تهيئه لصاحبها من وظيفة تنسب إلى الميرى وتحسب عليه . فاكتفى العقاد من مدرسة الدولة بالشهادة الابتدائية حين لم يقنع من مدرسة الحياة بما هو أكبر بكثير . فظل حياته طالباً فى تلك المدرسة وأستاذاً بها يتعلم عليه فيها حملة الإجازات بمختلف مراتبها وألقابها .

وهذا القلم الذى استقر نصف قرن بين أصابع العقاد فى ثبات واعتداد كان له درعاً وكان له سلاحاً. فحين نشبت الحرب العالمية الأولى ومست أسوان بالتجنيد الإجبارى والاعتقال المتكرر والإتاوات لتعلات ملفقة ، شهر العقاد سلاحه الخاص : القلم . فكتب ونشر فى تحد ظاهر هو سمة من سمات العقاد حتى إن السلطات عند ما نفت ناظر مدرسة المواساة إلى جزيرة مالطة، تعمد أن يشغل مكانه (تحدياً للأمر) كما يقول .

ويبدو أن التحدى أفاده هذه المرة فإن مدير الإقليم حين ضاق به ،أبى عليه نفيه إشفاقاً أن يقال إنهم يضطهدون المدرسة الإسلامية الوحيدة فى البلدة ، وإن احتال للأمر فصدمه بمفتش الداخلية الإنجليزى حتى

اضطر العقاد إلى أن يرحل من أسوان متنكراً . ولكنه لم يكف عن حربهما حتى أودى بهما فى النهاية . فإنه لم يكد يطأ أرض القاهرة حتى لاذ (بجعفر والى باشا) وكان صديقاً . وكان فى ذات الوقت وكيلاً للداخلية فكان يصطحبه كل يوم إلى مكتب المستشار ليشهده على كذب التقارير ضده التى تفد كل يوم من أسوان منذرة بخطر وجوده فى الإقليم ، مما أدى إلى إحالة المدير إلى المعاش قبل موعد الحركة الإدارية . فخرج من أسوان ولحق به المفتش . ومن الطريف أن المدير الذى خلفه كان يدعى « مقبل باشا » . فأبرق العقاد إلى أصدقائه فى أسوان يقول :

شر مدبر وخير مقبل

* * *

وحين كان العقاد يعمل فى وظيفة بمصلحة الإيرادات بقنا – وهى مركز أدبى قديم – أنشأ مع أهل الأدب بها – جمعية أدبية كانت تجتمع يوم الخميس من كل أسبوع فى مبنى الكنيسة باتفاق مع قسيسها البروتستنتى .

ثم خلف الصعيد وسافر إلى القاهرة وعمل بالكتابة والصحافة .

وتاريخ العقاد فى الصحافة يبدأ بصحيفة « الدستور» التى أصدرها الأستاذ « محمد فريد وجدى » منذ نصف قرن . فقد كانت أول صحيفة يومية عمل فى تحريرها، وأول صحيفة أيضاً واظب عليها . فقد عمل بها من العدد الأول إلى العدد الأخير مضطلعاً بنصف أعباء التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار . فقد كان هو المحرر الوحيد مع صاحبها .

وقد كان العقاد يوقع مقالاته الأولى باللقب وبالحرفين الأولين من اسمه : « ع. م. العقاد » متأثراً بالمجلات الأجنبية التى كان يقرؤها . ومن الطريف أن هذا لفت إليه النكتة المصرية فكان رفقاؤه يسمونه « عم العقاد » ويتفكهون « ماذا تقول يا عمنا » . . إلخ .

ولكنه فى سنى الحرب انصرف أكثر وقته إلى التدريس . ولكن علاقته بالصحافة لم تنته وإن كانت قليلة متقطعة على تعدادها وتنوعها . فقد اتصل بألوان من الكتابة الصحفية أتاحت له الوقوف على طرف من أسرارها وخباياها . وفى هذه الفترة كتب إلى المجلات الشهرية والصحف الأسبوعية كما اشتغل بالصحافة اليومية فى غير القاهرة .

وقد عمل العقاد رقيباً نزولاً على رغبة « جعفر والى باشا » وكيل الداخلية . ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالرقيب العام مستر « تيلور » فى ذلك الوقت فألقى إليه باستقالته ولما يمض عليه غير أسبوع .

* * *

ثم اشتغل بالتدريس فى مدرسة وادى النيل الثانوية على مقربة من مكتب المقتطف والمقطم حيث كان يكتب فى فلسفة المعرى وفلسفة شوبنهور مقارناً بينهما . وقد استدعاه ذات يوم الدكتور يعقوب صروف واقترح عليه الرحلة إلى الخطوط الأمامية فى صحراء سيناء ليصفها بثاً للطمأنينة فى النفوس . ولكن العقاد رفض لأن الدفاع فى ذلك الوقت كانت تقوم به دولة الحماية وهو يناوئها .

ثم انقطعت به الأسباب حيناً قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى فآوى

إلى بيته الذى اختاره بحى الإمام الشافعى متعمداً ليكون بعيداً عن القاهرة بتكاليفها ، فلم يكن يفد عليها إلا مرة فى الأسبوع هى يوم السبت . وفى إحدى هذه الزيارات علم أنه مطلوب للتحرير فى صحيفة « الأهالى » بالإسكندرية .

وكانت « الأهالى » إحدى ثلاث جرائد كانت شبيهة بالرسمية . فقد عمل على إنشائها « محمد سعيد باشا » رئيس الوزارة فى ذلك الحين لتكون لسان حاله . ومن الطريف أن اسمها هو نفس الاسم الذى كان إسماعيل أباظة باشا يصدر به صحيفته . وقد وقع الاختيار على هذا الاسم بذاته (لأن اسم « الأهالى » يقابل اسم « الشعب » واسم « الأمة » مصبوغاً بالصبغة التى تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة كما يقول العقاد) .

ولما شرعت صحيفة « الأهالى » فى مهاجمة الرأى السياسى الذى كان يتشيع له العقاد ، تركها وعمل بجريدة الأهرام حيث كان يدافع بقلمه عن القضية المصرية . وقد حدث عند ما أعلن ملنر بلاغه أن ترجمته الحكومة فى بلاغها الرسمى (أن الغرض من التحقيق إعطاء الاستقلال « تحت أنظمة دستورية ») وشايعتها الصحف بإيعاز منها ما عدا الأهرام . فقد رأى العقاد هـــذه الترجمة مدلسة وانفرد بترجمتها « تحت أنظمة حكم ذاتى » . حدث هذا فى ظل الأحكام العرفية . وكان هذا النزوع إلى إشهار الحقيقة والبر بها ، أحد الأسباب التى عرضته للنفى يوماً .

* * *

كما حارب العقاد الملكية فى مصر بلا هوادة من أجل الدستور وإرساء قواعد الحياة النيابية . فقد حدث أن سلم عبد الخالق ثروت الدستور للسراى حيث ظل بلا إعلان لأن الملك فؤاد كان يريد أن يسقط من الدستور عبارتين أولهما (الأمة مصدر السلطات) ، والأخرى (الوزارة مسئولة أمام البرلمان) . وفى سبيل هذه الغاية حاول استمالة بعض الوفديين ، فإذا العقاد يفتح عينه على المكيدة . فكتب مقالة يقول فيها إن الدستور كما كُتِبَ يعلن . وإذا كانت به أخطاء فإن البرلمان يناقشها . وقدر لهذه المقالة إحدى اثنتين إما أن يرفض البلاغ نشرها فتنكشف الحقيقة ، وإما أن ينشرها فتحبط المؤامرة . ونشرت المقالة وأبطل التدبير الذى بُيّت بليل . . .

ثم توالت الوقائع . حدث أن أقال الملك فؤاد الوزارة الوفدية وأقام وزارة يرضاها . وهذا نذير يهدد بإلغاء الحياة النيابية . فوقف العقاد على منبر البرلمان يعلنها مدوية أن شعبنا قادر على سحق أكبر رأس تتعرض لحياته . وحفظها له الملك فؤاد .

على أن العقاد لم يكتف بهذا بل ظل يكتب مقالات عن الرجعية يرتد الهجوم فيها بلا مشقة إلى الملك فؤاد فأفضى به الأمر إلى السجن .

* * *

وحياة العقاد سلسلة طويلة من الكفاح . . الكفاح بكل ألوانه . . الكفاح الأدبى والسياسى والمادى أيضاً . فقد صارع الرجل الزمن والأحداث والسلطات فى عهود شتى حتى استطاع أن يزحزح كل القوى المعوقة ، وينفذ

إلى مكانه الطبيعي فى الحياة . وكان يقضي الليل يقرأ على ذبالة مصباح ويقضي النهار على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول . . وتعقبه فى أعقاب الحرب العالمية الأولى الاستعمار والسلطات الممالئة له ، ولكنهم لم ينالوا منه شيئاً غير أن أخرجوه من بلده أسوان ليعود . واضطهدته الملكية حتى أودعته السجن ، وعرف مرارة الغبن والجحود فعاش منفرداً ، معتداً ، جميعاً بنفسه ، كثيراً بشخصه الفرد . . غير آبه بمن يعيبون عليه التفرد أو العزلة أو الاعتداد . خلص للأدب والعلم فخلصا له . وعاش بين كتبه لا يمل صحبتها ولا تمله . . كلاهما غنى لصاحبه وكفاء . . وقد انتظمت حياته على القراءة والكتابة فهو إما أن يستزيد وإما أن يزيد . . رفيقه فى العمر كتاب هو قارئه أو هو كاتبه فليس غيره على الحالين صاحب وخدين .

وقد أوتى العقاد الكتابة بكل ملكاتها ومواهبها ففاض بالشعر ، وتوسع فى المقال ، والنقد ، والتاريخ . . واللغويات ، والدين ، والفلسفة ، والعلوم ، وعالج القصة . وبهذه المواهب المتنوعة المتعددة ، مصحوبة بالقدرة على التأمل النافذ من ذهن موسوعي استطاع العقاد ، كما يقول الدكتور عثمان أمين ، أن يفتح فى عالم الفكر (طريقاً طويلاً بلغ فيه بجهده وصبره غاية قلما يبلغها مفكر واحد فى عصر واحد) .

ولما تنسك العقاد فى مكتبته **رفض المناصب** وقد عرض عليه منها ما يغرى . إنه الاكتفاء الذاتى لو صح هذا التعبير فى دنيا الأفراد . لكأن العقاد أودع رفضه كل صفاته من جبروت وصرامة واعتداد واستعلاء وزهد فى المناصب وما تضفيه . . إنه الأغنى بالقلم .

وهكذا عاش العقاد لقلمه وعاش به . . عاش ولوعاً بالمعرفة الإنسانية على اختلاف ألوانها . يخف إليها فى مظانها . عصامى صنع نفسه على غير مثال فى الرجال، وشق طريقه فى الحياة بسلاح الذكاء الفطرى والموهبة الأصيلة التى يزيدها الصقل والتجربة والطموح تألقاً ومضاء .

وهو يجيد من اللغات غير العربية ، الإنجليزية إجادة تامة . . روى لى مرة أنه كان إذا كتب فى العربية تمثلت الجملة فى ذهنه لأول وهلة ، إنجليزية ثم يخرجها على الورق عربية وذلك من طول قراءته للإنجليزية وتشربه لها . وإنه ليستعين بها على فهم الإيطالية والإسبانية اللتين يفهمهما بقدر ما هو مشترك بينهما وبين الإنجليزية .

أما الفرنسية فقد تعلمها أقصد علمها نفسه أثناء سجنه .

وفى الأدب العربى كان العقاد يؤثر من كتابه ابن المقفع وصاحب الأغانى ومن الشعراء ابن الرومى .

وعملاق الفكر العربى والأدب العربى كان أسلوبه بخصائصه المتميزة يمثله ويعلن عنه . أسلوب العقاد أسلوب منطقى يعتمد على المقدمات والنتائج حتى لتحس إزاء مقالته أن أفكارها مرتبة ترتيباً يتميز فيه البدء والختام قبل أن يخط فيها حرفاً . وأدب العقاد كما يقول الدكتور عثمان أمين (أدب الفكرة الواعية فى أرفع منازلها) . وقد كان ملاك الرأى عند العقاد فى الفن والأدب هو أن (الفن والأدب وجدان إنسان ، ولن يكمل الإنسان بغير ارتفاع فى طبقة الحس وارتفاع فى طبقة التفكير ، وأن التمام فى مزاياه الإنسانية أن يتم له الحس ويتم له التفكير) .

الصرامة والجد والتوقر طابع جلي في (أدب العقاد) شعره ونثره .

وأسلوب العقاد أسلوب علمي ما لم تغلب عليه طبيعة الموضوع إن كان أدباً خالصاً . الجملة عنده بنيان مرصوص . والكلمة في مقاله لها موقعها الذي لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخطر ، فهو بحق إمام من أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وهو لا يرتاح إلى الجمل المعترضة ومن ثم يدخلها في السياق . ويتحكم فيه السياق نوعاً ما حين يملي عليه التعبير المختار أو يوحي به . .

ومع ما لأسلوبه من الطابع العلمي **إلا أنه يميل إلى الإيقاع ونهاية الفواصل في غير حشو أو فضول . وهو يؤثر المعنى على اللفظ** وإن كان يستهويه السجع أحياناً في موضوعات التهكم والدعابة ، كما يختاره في الموضوعات الوجدانية وما إليها مما يلحق بالأغراض الشعرية . (فإن السجع ينبه الذهن إلى المعاني في هذه الأغراض ويزيدها جلاء وتوكيداً ، كأنه اللحن الذي يضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ليست للكلام الذي يسمع بغير تلحين) .

* * *

وهو متعصب للفصحى ولا يقبل التساهل فيها ، ويرى أن الكتابة الإنسانية ما كانت باللغة الباقية ذات القواعد .

ولكن تعصبه للفصحى في الحقيقة كان رد فعل للهجوم عليها من جهات عدة . وكان العقاد يرى (الحملة على اللغة في الأقطار الأخرى إنما هي حملة على لسانها أو على أدبها وثمرات تفكيرها على أبعد احتمال ،

ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شيء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير فى ضربة واحدة . لأن زوال اللغة فى أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها ، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربى أو المسلم قواماً يميزه من سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الأمم فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان) .

ولم يقف العقاد عند هذا الحد بل انبرى يبرز المزايا العلمية لهذه اللغة فى كتاب كامل حين مست الحاجة إلى إبراز هذه المزايا غاية المساس ، لأنها فى يقينه (قوام فكرة وثقافة وعلاقة تاريخية ، لا لأنها لغة كلام وكفى) .

* * *

وهو يزوّر عن النقد المتشائم ويعزف عن أصحابه . وإن كان لا ينكر على النقد أنه أصدق المذاهب على أن يذاف فيه العطف وتمتزج به الرحمة . Humanity Sympathy كالذى تطالعه العين فى أدب المعرى وشوبنهور .

والعقاد فى نقده يراه قوم متعصباً لرأيه . فأفكاره قضاء من حقه التسليم . ونسوا أن أفكاره هذه ، حياته .. أنها زوجه والولد .. أنها نور عينيه .. أنها دنياه وعالمه ، حين يفكر الآخرون ولكن ساعة من نهار ، أو سانحاً من خاطر ، أو حتى اهتماماً مقصوداً ، ولكنه أحد اهتمامات كثيرة هى فى مجموعها لا تلهيهم عن مناعم دنيا تعفف عنها العقاد ، وترفع عليها ، واستبدل بها عالم الفكر ومحرابه ليتعبد فيه ويتهجد ، وكأنه الكاهن حنحور كما كان يلقبه تلاميذه الصغار حين كان هو نفسه صغيراً فى حساب السنين . .

يقول العقاد : (إن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب ، وإن كانت معروفة الأسباب ، وناهيك بالعظمة التي ترتقى هذا المرتقى .

من تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين في وقت واحد لأنها متعددة الجوانب فيراها أناس على صورة ، ويراها غيرهم على صورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف في الوقتين المختلفين .

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك .

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر .

ووصفه هـذا للعظمة ينطبق عليه ، فقد كان كابن سـينا المعجبون به على الجملة أكثر من محبيه ، لأنه رزق أسباب الحسد من جميع نواحيه . فكان رجلاً عظيم الذكاء عظيم الاعتداد بالنفس عظيم النشاط ممتلئاً بالحياة . لكأنما كان يصف نفسه من خلال ابن سينا .

* * *

وآثر فنون المعرفة عند العقاد بترتيب :

- الشعر عربياً وأجنبياً وما يلحق به من نقد ودراسة .
- البحث فيما وراء الطبيعة .
- العلوم .

* * *

لقد شارفت كتب العقاد المائة .

ومن عجيب أن هذه التحليقات التي أغنت أدبنا وتاريخنا ، هذه الآفاق التي أحسنت إلينا ، أساءت إلى ربها شاعراً ! فشعر العقاد قيمة إنسانية كبرى بما أعلى من شأن (الإنسان) وليس شعراً عربياً فحسب . وكانت أحب صفات العقاد إلى نفسه صفة « الشاعر » . ولكن بحوره في الكتابة على اختلاف ألوانها غلّبت صفة الكاتب ، وصفة المفكر ، وصفة الأديب . يضاف إلى هذا أن العقاد شاعراً يقترن في أذهان الناس برفيقيه الشاعرين المازني وعبد الرحمن شكري عضوي مدرسة الديوان . والذي حدث أن المازني زهد في الشعر وخلص للنثر ، « وشكري » زهد في كل شيء : الشعر والناس والحياة . وآض إلى عزلة رهيبة أسلمته إلى العزلة الكاملة .

هذه العوامل مجتمعة ومتفرقة ألهت الناس وأنستهم ما لا يُغْفَلَ عنه في مجال التاريخ والتقدير ، وهو مثالية العقاد في الشعر ، وتفرد العقاد الشاعر . وقد سبقني إلى هذا القول الدكتور طه حسين الذي أعلن سنة ١٩٣٤ على الملأ : أني لا أؤمن في هذا العصر الحديث بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد . ولم يقل الدكتور طه حسين وهو أعلم بمواطن الكلام هذا القول ، تحية بمجامل فطالما تعارض الرجلان في الأدب وفي غيره مما تتشاجن فيه الآراء ، ولكنه قال عن علم رجل الأدب بالعقاد الذي خلق لنفسه بالدرس المتصل الطويل الذي لا يعرف حدًّا ، (قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا ، قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب لأنهم من أقل الناس قراءة في هذا العصر . خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيراً إلا في أوربا حيث يلتمس الشعراء الفن لا في الأدب وحده ، بل في العلم ، وفي كل شيء آخر) .

وحين يحدد الدكتور طه حسين مكان العقاد في الشعر ومتى ؟ منذ ربع قرن يعلن مرة أخرى (أن المدرسة القديمة قد ماتت بموت حافظ وشوقى ، وأن المدرسة الجديدة — أى مدرسة العقاد — قد أخذت تؤدى حقها وتنهض بواجبها فترضى المصريين والعرب جميعاً ، فإذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضاً ، وإذا الشعور المصرى والقلب المصرى والعواطف المصرية أصبحت لا ترضى أن تصور كما كان يصورها حافظ وشوقى ، إنما تريد وتأبى إلا أن تصور تصويراً جديداً . وهذا التصوير هو الذى حمل الملايين على إكبار العقاد) .

لماذا أكبر الدكتور طه حسين العقاد وآمن به وحده دون غيره من الشعراء فى هذا العصر؟

(لأنى حين أسمع شعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة) .

ثم لماذا أيضاً ؟ (ثم لأنى إذا قرأت شعره مرة ومرة ومرة — لم أستطع أن أقول لنفسى : قد قرأت هذا الكلام من قبل أو أين قرأت هذا . أفى شعر البحترى أم عند أبى تمام أم سبق أبو نواس إلى مثل هذا الكلام ، كلا . . إنما تقرءون العقاد فتقرءونه وحده ، لأن العقاد ليس مقلداً ، ولا يستطيع أن يقلد ، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته . وشخصية العقاد فوق الفساد . خذوا ما شئتم من دواوين الشعراء المعاصرين الذين أكبر منهم كثيرين وأحب منهم كثيرين . أنا واثق أنكم لن تمضوا فى قصيدة حتى تذكروا شاعراً من المتقدمين ، أو أن تذكروا شاعراً من الغربيين المحدثين ولكن انظروا فى العقاد خذوا بيتاً من العقاد أو قصيدة أو مقطوعة فلن تروا إلا العقاد) .

هذه أقوال أفذاذ لم تستطع المعاصرة أو المنافسة أن تحجب كلمة الحق أو حتى زهو الفخر و إشادة التقدير . . .

* * *

وكان العقاد يخطط لحياته فلا ينجز مشروعاً حتى يرسم آخر فلا يستريح بينهما إلا أسبوعاً . والراحة هنا معناها أنه يتخفف فى القراءة فيختار الموضوعات الخفيفة والشيقة . فإذا فرغ الأسبوع الموعود شرع فى وضع الكتاب الجديد . وكان آخر اهتماماته سلسلة أتم بعض حلقاتها . وهذه السلسلة كتب أربعة عن :

الله — الكون — الإنسان — الشيطان .

وقد أنجز العقاد منها كتابه (إبليس) وكتابه (الله) الذى احتشدت له ملكاته كلها . وبعد رحلته الفلسفية الطويلة فيه . انتهى إلى القول بأن (الإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة . لأن الإنسان غير المؤمن إنسان « غير طبيعى » فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه ، وأن الحس والعقل والوعى والبديهة جميعاً تستقيم على الإيمان بالذات الإلهية ، وأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم) .

كما انتهى بحثه فيه إلى أن (العقيدة الدينية هى أقرب الفلسفات إلى المعقول وليس قصارى الأمر فيها أنه أمر تصديق و إيمان .

لا بد من وقفة فى كل تفسير للوجود .

فوقفة المؤمن أصح من وقفة الفلاسفة فى النهاية : كل ما هو محدود

فقد يحيط به القياس ، ولا إحاطة بما ليست له حدود . « البارى » قديم سرمد لا يحده الزمان ولا المكان . ليس كمثله شيء وهنا يحسن الوقوف .

ألأنه عقيدة وكفى ؟

كلا ، بل لأنه منطق سليم ، ولأنها نهاية شوط العقول) .

ومن مشروعاته فى الكتابة لو أن العمر امتد به ، الكتابة عن الغزالى وعن بعض الشعراء مثل توماس هاردى وهاينى .

* * *

وإذا كان الدكتور زكى نجيب محمود يشبه شعر العقاد بأنه (أقرب شيء إلى فن العمارة والنحت وأن القصيدة عنده بناء من الصوان ، والقلم فى يده هو إزميل النحات ، وأنه لا يصوغ قطعة من العجين اللين ولا يقيم بناء من الطين الطرى المطواع فلا الفكرة عنده قريبة المنال ، ولا المادة سهلة التشكيل . القصيدة عنده هى المسلة القديمة قدت من حجر الجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع فى السماء فهيا هنا العمق . . والسموق معاً) .

إذا كان الدكتور الباحث يقصر هذا الوصف على شعر العقاد ، فإن هذا الوصف يصدق فى غير زيادة أو تحريف على أدب العقاد كله شعره ونثره على السواء . فكل كتاب للعقاد وراءه جهد دارس متعمق محيط . وكل كتاب للعقاد بصورته التى هو عليها من حيث التناول والصياغة ومادة الموضوع ونفاذ الرأى والتحليل ، (مسلة) قدت من حجر

الجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع فى السماء . وليس بكتاب للعقاد ما احتوى على فكرة قريبة المنال أو مادة سهلة التشكيل .

ولكن أقرب كتبه إليه كتابه (ابن الرومى) . إن بينه وبين الشاعر تجاوب الفن حتى ليراه فى النوم على صورة واحدة كما حدثنى مرة . . وهو يرى فى ابن الرومى شاعراً وصافاً لا نظير له . فى آداب الدنيا على كثرة ما فيها من وصف ووصافين . فهو حين يكتب عنه يجد رضى نفسه فى الكتابة . إنه يرتاح حين يعطيه حقه ويرفعه إلى حيث يجب أن يكون . .

لقد كتب العقاد عن عمر ، الذى نال بكتابه عنه جائزة الآداب . ولكنها كتابة الإنسان الذى يؤدى واجبه ويقول ما يعتقد . ولكن كتابه (ابن الرومى) فيه ذاتية واضحة تحب فى إعجاب وتتعصب فى حماسة . .

* * *

وقد تُرجم كتاب (الله) إلى الفارسية كما ترجمت بعض كتب الأستاذ العقاد فى ألمانيا وروسيا وفرنسا .

وترجمت إلى الإيرانية والأردية والملايو كتبه :

(عبقرية محمد) ، (أبو الشهداء) ، (عبقرية الإمام) .

* * *

ولكتابه الأول (خلاصة اليومية) قصة هو يرويها :

(كان يأساً من معنى الحياة . . كل غاية فى الحياة . . لأننى قبل ذلك بشهور عكفت على القراءة فى كتب (الفلسفة المادية) وأكثرت من النظر فى مذهب النشوء والارتقاء فلاح لى أنه أصدق من أقوال خصومه

المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الأوربيين باسم الدين . ولاح لى من النظرة الأولى على غير روية فيه أنه يهبط بالإنسان إلى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجاً واحداً يرتفع عليه .

وكذلك كتبت فى مقدمة كتابى (خلاصة اليومية) أن الإنسان حيوان راق ولكنه حيوان .

وقصة (الخلاصة) هذه هى قصة الأمل الذى بقى عندى يومئذ فى شهرة الأدب وفى عدد الأيام التى أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب . وكنت أظننى مبالغاً إذا حسبتها بأكثر من الأيام .

هو الموت إذن كما استقر فى خلدى بلا أثر ولا خبر ، وهو الموت إذن أمضى إليه صفر اليدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ومن كل مجد يبقى بعد ذويه .

* * *

و « اليومية » هذه هى دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات وأبادر إلى إيداعه أبيات الشعر التى نظمتها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رءوس الموضوعات التى نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادر الأحاديث العابرة التى أعاودها فى مناسباتها . وقد اجتمع عندى من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات . فلما وقع فى وهمى أننى سأذهب بغير أثر ولا خبر تصفحت هذه الدفاتر ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها وبعثت بها إلى صديق فى القاهرة أقول له إن هذه الصفحات هى كل ما أتركه إذا تركت الحياة : فإن وجدنى أهلاً

للذكر ووجدها أهلاً للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقى ، وإلا فلا حرج عليه أن يهمل نشرها ويسلمها للنسيان . . يطويها حيث طواها فى زاوية من زواياه .

ثم طبعت خلاصة اليومية بعد أن أضفت إليها وحذفت منها ، وكان من التوفيقات التى لم أترقبها أنها نفدت فى أقل من ستة شهور ، فلم يبق من ألفى نسخة طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجاح غريب لكتاب ولدته فكرة يائسة من الحياة) .

ولكنه لم يخرج من الدنيا فى ذلك الوقت الذى قدره لأن الله أراد بنا خيراً فعاش العقاد ليملأ الدنيا لمصر مجداً ، وعاش ليملأ حياتنا أدباً وعلماً وفكراً ، وأملا فى (الطموح) ، وفى (الكرامة) وفى (الإنسان) . . فى الإنسان الذى كان العقاد بشخصه ، وسيرته ، وكتابته ، أشرف مثل له وأكرمه على الحياة والناس .

* * *

وللعقاد مدرسة ولكنها لم تتبلور إلا فى الأعوام الأخيرة . فقد كانت قبلاً شبه علاقات متفرقة بأفراد متفرقين ثم اتضحت معالمها . ومن أبرز أبنائها الأستاذ على أدهم والدكتور زكى نجيب محمود . والدكتور عثمان أمين والدكتور محمد غلاب والأستاذ أنيس منصور والأستاذ عبد الرحمن صدقى والفنان صلاح طاهر والموسيقى الشجاعى والأستاذ عبد الفتاح الديدى والدكتور نظمى لوقا والشاعر محمود عماد والشاعر محمد طاهر الجبلاوى تلميذه وصديقه .

ومن أصدقاء مدرسة العقاد الشاعر عزيز أباظة والمرحوم الأستاذ كامل الشناوى والأستاذ طاهر الطناحى .

* * *

وأدب العقاد على جديته وصرامته لا يخلو من المرأة حبيبة ، وصديقة .
فالعقاد من ذلك الرهط الذى كان يؤم صالون (مى) الأدبي ويغشى مجالسها ، ومى هى بعينها (هند) فى (سارة) وفى الديوان . وظاهرة فى أدب العقاد أن كل اسم فى (الديوان) أو (سارة) من حيث الوزن العروضى له نظيره الحقيقى حتى تلك التى يدعوها (يابنية) فى ديوانيه (أعاصير مغرب) و (بعد الأعاصير) .

وكانت (سارة) شخصية مستوفية ثقافة وجمالاً . ذات أنوثة متأصلة عارمة طاغية حتى ليؤثر عنها قولها (لو خيروني أن أكون رجلاً لأبيت) .

ولعل هذه المستويات الرفيعة من الثقافة والنماذج الرائعة من الجمال هى التى زهدت العقاد فيما هو أدنى ، أو لعله التنسك فى محراب الفكر حتى لا يعطى من نفسه أحداً سواه . يعزز هذا ما رآه العقاد من تمزق صديقه المازني عند وفاة ابنته فآل يومئذ على نفسه ألا يواجه هذا الموقف المروع وأشفق عليها من مجرد احتمال الثكل . وكان العقاد مرهف الإحساس شديد التأثر لا يطيق الألم فى نفسه أو نفوس الآخرين وخاصة الألم الذى لا قبل للإنسان بدفعه أو تفاديه .

وجوهر الرأى عنده فى قضية المرأة كما جاء فى أكبر كتبه عنها (المرأة فى القرآن الكريم) أن :

ملاك العدل والمصلحة بين الجنسين أن تجرى الحياة بينهما فى الأمة على سنة التعاون والتقسيم (لا على سنة الشقاق والتناضل بالمطالب والحقوق) .

وليس الخلاف بينهما بالخلاف الذى ينفض بالصراع على كفاية واحدة يدعيها كلاهما فى مقام الخصومة ، ولكنه خلاف على كفايتين أيهما أصلح لهذه وأيهما أصلح لتلك ، وإن صلح كلاهما لكفاية الآخر فى كثير من الأحيان .

وهو حين يرى وظيفتها المثلى التى تستقل بها : حماية البيت فى ظل السكينة الزوجية من جهاد الحياة ، وحصانة الجيل المقبل لإعداده بالتربية الصالحة لذلك الجهاد . . حين يرى هذا يعلن فى غير مواربة أن حصتها هذه ليست بأصغر الحصتين . **ليس تدبير السكينة فى الحياة بأهون من تدبير الجهاد ، وليس العمل الصالح لسياسة الغد بأهون من العمل الصالح لسياسة اليوم** .

* * *

وقبل أن أضع القلم أريد أن أقف وقفة قصيرة عند ظاهرة لا تخطئها عين الدارس لأدب العقاد بل القارئ العادى وأعنى ظاهرة (النور فى أدب العقاد) .

والنور ظاهرة من ظاهرات كثيرة فى تراث الرجل الكبير فقد أحب النور ، واختار بيته فى مدينة النور ، وفتحه للنور كما فتح عقله الكبير للنور . . كل النور . . من الشرق والغرب **فغدا عقلاً نورانيًا موسوعيًا فى عصر التخصص والتحديد** . وهو بهذه الصفة ظاهرة فذة بين الأعلام المعدودين

وهو بهذه الصفة عاش قروناً طويلة لا تقاس فى عداد السنين بالستين والسبعين ، التى نعرفها .

والنور الذى أحبه العقاد النور العادى والنور المعنوى على السواء .

فقد أحب العقاد النور لأنه كان صريح النفس لا يخاتل ، صريح الرأى لا يخافت به ولا يجمجم فيه بل كان حرًّا كالنور ، نافذاً مثله يكشف المعميات والخوافى . على غراره . واختلف الناس فى طبيعة النور الذى أشرق على مصر من أسوان اختلافهم فى معنى العظمة والعظيم فقال المبصرون هو النور والإشراق ، وقال المذعورون بل النار والإحراق . ثم غدا العقاد سيرة مجيدة . وإذ هدأ روع الخائف تعلق بما كان ينكره ، والتى معنا على تمجيده والوفاء له . وحق له الوفاء والتمجيد .

إنسان شفاف مضىء يحب النور ويعيش فى النور بل كان يتعشق النور حتى ليقول : (أحبه صافياً وأحبه مزيجاً ، وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً . وأحبه مخزوناً كما يخزن فى الجواهر ، وأحبه مباحاً كما يباح على الأزاهر . وأحبه فى العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون .

ويوم سكنت فى هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبنى أننى أفتحها فلا أرى منها إلا النور . . والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور . .

وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء !)[١] .

---

(١) فى بيتى ص ٥ .

إنسان عميق لا يرى الأشياء سطحها ولكنه ينفذ خلالها كالشعاع حتى النهار الذى يتكرر فى حياة الإنسان كل يوم ما عاش فلا يثير التفاته بله تفكيره شأن المكرر المعاد . . هذا النهار ينظر إليه العقاد نظرة متوهجة غنية مبتكرة فهو نهار مبتكر (عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ! . . خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلألأ فى فضائه الأول للمرة الأولى . . وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا و بين النورفى أبعد مكان من الفضاء ، وفى أبعد فترة من الزمان ؟ ههنا شىء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين)[1].

ولقد غنى العقاد للنور فى كتابيه (أنا) و (فى بيتى) غناء عذباً . والبعثة المحمدية « مطلع النور » ورسالة محمد (رسالة النور) ص ١٢٩ .

النور عنده مصدر كل شىء حتى الربيع : (إن الربيع ليغنى لأنه حى ولا سبب للغناء غير ذلك ولا حاجة إلى سبب غيره لمن يحس ويعيش . والربيع حى لأنه موسم الحرارة والضياء . وهل الحياة إلا حرارة وضياء ؟ إنك لتؤمن بالروح وحده أو بالجسم وحده ثم تقول إن النور هو مصدر كل شىء وأصل كل حياة فلا تكون إلا على صواب ، وما كان نور العين ولا نور الروح إلا شيئاً واحداً فى العنصر والقرار ، وإلا عنصراً واحداً لكل ما يظهر فى هذه الدنيا للبصائر والأبصار)[2] .

وقد يكون هذا القول مجملاً أو مكتنزاً على عادة أقواله . ولهذا أرانى

---

(١) فى بيتى ص ١١ .
(٢)ساعات بين الكتب ص ٣٩ .

بحاجة إلى التماس مزيد من إيضاح أو تخريج فيعين كتابه (الفصول) على الغرض فيسأل معنا : ما هو الربيع ؟ أليس هو فصل الحب ؟ أليس هو الموسم الذى تشرق فيه ألوان الأزهار فتتزاوج كما يتزاوج الأحياء ؟ ألا تنكشف للعشاق علاقة هذه الأزهار بالغرام فيتراسلون بالأنوار الندية ، والرياحين الشذية . ويخرجون إذا أقبل الربيع إلى المنازه والخلوات فيختارون من الأماكن ما تحف به الورود المتعانقة والطيور المتعاشقة . وتفاجئهم بهجة الحب داخل نفوسهم ومن خارجها فى نفثة واحدة من نفثات الطبيعة الحية ؟ وأى ميلاد يؤلف بين نسبها ونسبنا ، وأية قربى تمت بها الأزهار إلينا ألصق من القربى التى تجمع فى موسم واحد بين توالدنا وتوالدها ، وحياتنا وحياتها وامتزاج الجمال والحب فيها بامتزاج الجمال والحب فينا ؟

ولم يحقق لنا العلم ما هو سر تأثير ألوان الزهر على أبصارنا ولا ما هو سر تأثير الزهر بذاته فى شعورنا . ولكننا قد نرى علاقة النور بالألوان . ونرى علاقة الحرارة بالنور ، ونرى علاقة الربيع بالحرارة ، ثم نرى علاقة العواطف الغرامية بالربيع . فكلها عناصر ربيعية تظهر بباعث واحد فى زمن واحد ولا نرى منها إلا ما هو من الحرارة قابس ، وبالضوء مزدان ولابس ، وفى الحب مغروس وغارس) .

وليس هذا من حلى الأسلوب كما يوحى التوافق بين أواخر الجمل فى الصوت والحروف فإن العقاد يمضى قائلاً :

الحرارة تنبعث من الشمس إلى جوف الأرض فتتخللها فتنبت البقل والثمرات — ذلك هو الربيع .

والحرارة تبسط نورها على الأزهار فينسج على أوراقها اللطيفة ألوانه ويحليها بأصباغه ونقوشه . ذلك هو سحر الألوان وبهجة الأزهار .

والحرارة تجرى الدم فى العروق فتتيقظ العواطف التى أنامها الظل . وتتحرك الحياة الكامنة فيملكها الشوق إلى تجديد الحياة فى مخلوق جديد ، ذلك هو الحب . فالربيع والأزهار والحب أشقاء لم يولد بعضها بعضاً ولكنها تولدت على السواء من أم واحدة هى الحرارة . أو هى الشمس أم الحب والحياة فى هذا النظام) .

كان العقاد يحب النور وما أكثر ما قرأ العقاد فى صباه على ضوء شمعة أو فتيل مصباح !! . وما أكثر ما فى حياة هذا القلم من عجائب ومقابلات .

* * *

أنا لم أقل كل شيء عن ظاهرة واحدة من ظاهرات عديدة فى أدب العملاق إن هى إلا لمحة من نوره تسمى على ضوء ذكرى حياة طويلة جهيرة كبيرة العطاء ، وحياة عريضة غنية لها تاريخ فى التاريخ . وهى مَعْلَم من معالم النهضة الأدبية الحديثة يقف صاحبها بين أعلامها قمة شامخة باذخة . حياة ثرة المنابع كثيرة الجوانب كالنهر العظيم تتفرع عنه فى سيره الجداول والعيون . أملت له ، فى العمر ، الأيام وأملى لها ، وأمدته وأمدها ، وعاشت فى أدبه وعاشها . وعلى جلال السن وهالة المشيب رحل عنها وهى ما زالت ترتجيه ، وما زال عنده الكثير مما هو بسبيل كتابته والبحث فيه . كانت الكتابة روح حياته ومعناها فلم يحل بينه وبينها إلا سفره إلى أسوان . وهو

معنى ضخم لا ينفذ إليه إلا الأقلون ليعيشوه . وحتى هؤلاء ، يقف بينهم بذكره العريض ، نموذجاً وحده ، عباس محمود العقاد .

* * *

إن العقاد كقمة الهرم الأكبر لا يرقى إليها صاعد إلا من قاعدة واسعة . فالعقاد لم يكن شاعراً فحسب ، أو كاتباً فحسب ، أو ناقداً فحسب ، أو عالماً فحسب ، بل كان هذا كله مجتمعاً ، وكان أكثر منه .

إن القول فى العقاد يطوف ما يطوف ثم يقصر عن الإحاطة أو ما دونها . إن هى إلا لمحات جانبية لأن القول الحق فيه والتقييم الدارس لا يتأتى إلا بالوقوف على الأصول التى درسها العقاد ، وورود المنابع الثقافية التى عب منها العقاد . وهو أمر تشكل ضخامته صعوبة كبيرة للدرس والتقييم إلا أن يسعف صبر صابر وتفرغ مخلص وجد دءوب . ولعل هذا يفسر طواف معظم الدراسات والكتب بمشاهير الكتاب والشعراء دون العقاد من تهيب لمجالاته وتقدير لوعورة الطريق .

حين ترجم العقاد لابن الرومى قال (لأن تكون ترجمة ابن الرومى صورة خير من أن تكون قصة ، لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال) . ولكننا إزاء العقاد . نجد أنفسنا أمام قصة نادرة بين قصص الواقع تكاد تكون أسطورة بما اجتمع لها من ألوان التفرد والترفع والامتياز .

* * *

مؤلفات الأستاذ العقاد

وبعض تراث العقاد فى حياتنا الفكرية ما أذكره على سبيل المثال لا الحصر

الشعر :

- ديوان العقاد (أربعة أجزاء) ١٩٢٨
- يقظة الصباح ١٩١٦
- وهج الظهيرة ١٩١٧
- أشباح الأصيل ١٩٢١
- أشجان الليل ١٩٢٨
- وحى الأربعين ١٩٣٣
- هدية الكروان ١٩٣٣
- عابر سبيل ١٩٣٧
- أعاصير مغرب ١٩٤٢
- بعد الأعاصير ١٩٥٠
- ديوان من دواوين ١٩٥٨
- ما بعد البعد ١٩٦٦

الأدب والاجتماع والتاريخ :

- الفصول ١٩٢٢
- الشذور ١٩١٥

- مطالعات فى الكتب والحياة ١٩٢٤
- مراجعات فى الأدب والفنون ١٩٢٥
- اشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ١٩٦٣
- ساعات بين الكتب جـ ١ ١٩٢٧ جـ ٢ ١٩٤٥ الجزءان معاً سنة ١٩٣٧
- عالم السدود والقيود ١٩٣٧
- يسألونك ١٩٤٧
- بين الكتب والناس ١٩٥٢
- إبليس ١٩٥٥
- على الأثير ١٩٥٣
- مطالعات ١٩٥٦
- عقائد المفكرين فى القرن العشرين ١٩٥٨
- جحا الضاحك المضحك ١٩٥٦
- فى بيتى ١٩٤٥
- القرن العشرون ما كان وما سيكون ١٩٥٩
- ١١ يوليو وضرب الإسكندرية ١٩٥٢
- اليد القوية فى مصر ١٩٢٨
- جوائز الأدب العالمية ، مثل جائزة نوبل ١٩٦٤

القصة :

- سارة ١٩٣٨

الدراسة والنقد واللغة :

- الديوان فى النقد والأدب مع الأستاذ المازني ١٩٢١
- ابن الرومي حياته وشعره ١٩٣١
- شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ١٩٣٧
- رجعة إلى أبي العلاء ١٩٣٩
- فمبيز فى الميزان ١٩٣١
- أبو نواس الحسن بن هانئ ١٩٥٣
- شاعر الغزل (عمر بن أبي ربيعة) ١٩٤٣
- جميل بثينة ١٩٤٤
- شاعر أندلسى وجائزة عالمية ١٩٦٠
- اللغة الشاعرة ١٩٦٠
- التعريف بشكسبير ١٩٥٨

الترجمة :

- (عرائس وشياطين) مجموعة من الشعر العالمى ١٩٤٥
(ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى) ١٩٥٤

المذكرات :

- خلاصة اليومية ١٩١٢

- اليوميات جـ ١ ، ١٩٦٣ ، جـ ٢ ١٩٦٥ ، جـ ٣ ١٩٧١ ، جـ ٤
١٩٧١ ، جـ ٤ ١٩٧٤

الفلسفة :

- مجمع الأحياء ط ١ ١٩١٦
- الله ١٩٤٧

السياسة :

- الحكم المطلق فى القرن العشرين ١٩٢٨
- هتلر فى الميزان ١٩٤٠
- أفيون الشعوب ١٩٥٦
- فلاسفة الحكم فى القرن الحديث ١٩٥٠
- الشيوعية والإنسانية ١٩٥٥
- الشيوعية والإسلام ١٩٥٦
- النازية والأديان ١٩٤٠
- الصهيونية العالمية ١٩٥٥
- لا شيوعية ولا استعمار ١٩٥٧

العبقريات والشخصيات الإسلامية :

- عبقرية محمد ط ١ ١٩٤٢

- عبقرية الصديق ١٩٤٣
- عبقرية عمر ١٩٤٢
- عبقرية الإمام ١٩٤٩
- عبقرية خالد ١٩٤٥
- عبقرية المسيح ١٩٥٣
- أبو الأنبياء . . الخليل إبراهيم ١٩٥٣
- داعى السماء (بلال) ١٩٤٥
- ذو النورين (عثمان بن عفان) ١٩٥٤
- الصديقة بنت الصديق ١٩٤٣
- أبو الشهداء ١٩٤٥
- عمرو بن العاص ١٩٤٤
- معاوية بن أبى سفيان فى الميزان ١٩٥٦
- فاطمة الزهراء والفاطميون ١٩٥٣

الإسلاميات :

- الإسلام والاستعمار ١٩٥٧
- مطلع النور ١٩٥٥
- الديمقراطية فى الإسلام ١٩٥٢
- أثر العرب فى الحضارة الأوربية ١٩٤٦
- الفلسفة القرآنية ١٩٥٧

حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٩٥٧
- الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان العبريين ١٩٦٠
- التفكير فريضة إسلامية ١٩٥٧
- الإنسان فى القرآن الكريم ١٩٦١
- الإسلام فى القرن العشرين ١٩٥٤
- ما يقال عن الإسلام ١٩٦٣

التراجم :

- حياة قلم ١٩٦٣
- سعد زغلول ١٩٣٦
- روح عظيم (غاندى) ١٩٤٨
- تذكار جيتى ١٩٣٢
- بنيامين فرانكلين ١٩٥٦
- محمد على جناح ١٩٥٢
- برنارد شو ١٩٥٠
- الشيخ الرئيس ابن سينا ١٩٤٦
- عبد الرحمن الكواكبي ١٩٥٩
- سن يانسن ١٩٥٢
- فرانسيس باكون ١٩٤٥
- ابن رشد ١٩٥٣

- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١٩٦١
- رجال عرفتهم ١٩٦٣

المرأة :

- الإنسان الثانى ١٩١٢
- هذه الشجرة ١٩٤٥
- المرأة فى القرآن الكريم ١٩٥٩ .

أما الكتب التى قدم لها ، أو عرف بها أو نقدها . . . أما المقالات والبحوث فى شتى المعارف فقد سجلتها دار الكتب فى نشرة ببليوجرافية باسم عباس محمود العقاد .

كتب للأستاذ العقاد صدرت بعد وفاته

— أنا (١٩٦٥)
— ردود وحدود (١٩٦٩)
— دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية (١٩٦٩)
— الحرب العالمية الثانية (١٩٧٠)
— المرأة ذلك اللغز (١٩٧٠)
— بحوث في اللغة والأدب (١٩٧٠)
— خواطر في الفن والقصة (١٩٧١)
— قيم ومعايير (١٩٧٢)
— عيد القلم (١٩٧٣)
— مع عاهل الجزيرة العربية عبد العزيز آل سعود (١٩٧٣)
— الإسلام والحضارة الإنسانية (١٩٧٣)
— آراء في الآداب والفنون (١٩٧٣)
— دين وفن وفلسفة (١٩٧٣)
— الإسلام دعوة عالمية (١٩٧٣)
— مواقف وقضايا (١٩٧٤)
— فنون وشجون (١٩٧٤)

فهرس كتاب العقاد

رقم الإيداع	١٩٨٣/٢٧٦١
الترقيم الدولى ٩٧٧-٠٢-٠٤٢٦-٩	ISBN

١/٨٣/١٠٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

يناقش هذا الكتاب ثلاثة خطوط رئيسية فى أدب العقاد :

- خط الحرية وفهمه لها بألوانها ، ومواقفه منها .
- خط الجمال والفن «الموسيقى والفنون التشكيلية» .
- خط «الإنسان» .

وهذا الخط يشغل جزءاً كبيراً من الكتاب حيث ناقش عبقريات العقاد الإسلامية .. كما ناقش عبقرية المسيح .

وتناول هذا القسم من الكتاب التراجم الإنسانية التى كتبها العقاد من أمثال غاندى والشيخ محمد عبده . وشكسبير وبرناردشو وجيته وابن سينا وابن رشد وفرانسيس بيكون وسعد زغلول . ومن شعراء الطبيعة كابن الرومى ، وشعراء الغزل كجميل بثينة وعمر بن أبى ربيعة .

ومن هذا المنطلق ترجمت الكاتبة حياة العقاد نفسه :

«العقاد الإنسان .. العقاد الشاعر .. العقاد والمرأة» .. فى موضوعية علمية تجمع مع دقة التحليل وبراعة العرض والكثير من الجديد الذى يكتب لأول مرة ، الأسلوب الأدبى الشيق والجميل .

١٨٨٣٢/٠١